

## ذكر استيلاء الفرنج على ما نذكره من البلاد الإسلامية بالساحل والشام والبيت المقدس

لم يكن جميع ما استولوا عليه. مما نذكره داخلا في ملك الدولة العبيدية، بل كان منه ما هو في أيدي نواب المستعلي، وما هو بيد الملوك الذين تغلبوا على الأطراف، ولم يكن أيضا في أيام المستعلي خاصة، وإنما أوردناه بجملته في هذا الوضع لتكون الأخبار متتابعة ولا تنقطع بالسنين والدول. وقد نبهنا عليه فيما تقدم من أخبار الدولة العباسية .

والذي نذكره الآن في هذا الموضع هو ما استولوا عليه من سواحل الشام سنة إحدى وتسعين وأربعمائة وما بعدها.

كان ابتداء ظهورهم وامتدادهم وتطرقهم إلى البلاد الإسلامية في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، وذلك أن بلاد الأندلس لما تقسم ملوكها بعد بني أمية وصارت كل جهة بيد ملك، وأنفت نفس كل واحد أن ينقاد إلى الآخر، ويدخل تحت طاعته، فكانوا كملوك الطوائف في زمن الفرس، وعجز كل واحد عن مقاومة من يليه أو يقصده من الفرنج، أدى ذلك إلى اختلال الأحوال، وتغلب الأعداء على البلاد الإسلامية. فأول ما استولوا عليه مدينة طليطلة من الأندلس، على ما ذكرناه في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، ثم ملكوا جزيرة صقلية في سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وتطرقوا إلى أطراف إفريقية فملكوا منها شيئا ثم استرجع منهم، على ما قدمناه

## ذكر ملكهم مدينة انطاكية

كان استيلاء الفرنج خذلهم الله تعالى، على مدينة أنطاكية في جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة. وكانت بيد ملوك الروم من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة إلى أن افتتحها الملك سليمان بن شهاب الدين

ولد قتل مش السلجقي، صاحب أقصر أوقونية وغير ذلك من بلاد الروم في سنة سبع وسبعين وأربعمائة، على ما ذكرناه في أخبار الدولة السلجقية، وبقيت في يده إلى أن قتل . وتداولتها أيدي المتغلين من ملوك الإسلام وأمرائهم إلى أن استقرت بيد ياغي سيان، وهو يخطب فيها للملك رضوان بن تش صاحب حلب، ولأخيه الملك دقاق صاحب دمشق.

فلما كان في سنة تسعين وأربعمائة جمع بغدوين ملك الفرنج جمعا كثيرا من الفرنج، وكان نسيب رجار الفرنجي صاحب صقلية، فأرسل إليه بغدوين يقول: قد جمعت جمعا كثيرا وأنا وأصل إليك وسائر من عندك إلى إفريقية وأكون مجاورا لك .

فجمع رجار أصحابه واستشارهم فقالوا كلهم: هذا جيد لنا ولهم، وتصبح كلها للنصرانية. فلما سمع رجار كلامهم وما اجتمعوا عليه، رفع رجله وحبق حبة قوية، وقال: وحق ديني هذه خير من كلامكم قالوا: وكيف ذلك؟ قال إذا وصلوا إلي احتجت إلى كلفة كثيرة، ومراكب تحملهم إلى إفريقية، وعساكر من جهتي، فإن فتحوا البلاد وكانت لهم صارت مؤونتهم من صقلية وينقطع عني ما يصل إلي من المال من ثمن الغلات في كل سنة، وإن لم يفتحوها رجعوا إلى بلادهم وتأذيت بهم، ويقول تميم، صاحب إفريقية غدرت بي ونقضت عهدي، وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا وبين بلاد إفريقية، وإفريقية باقية متى وجدنا قوة أخذناها بها.

ثم أحضر رسوله وقال له: إذا عزمتم على جهاد المسلمين فاقصدوا بذلك فتح بيت المقدس وخلصوه من أيديهم، ويكون لكم الفخر، وأما إفريقية فبيني وبين أهلها أيمان وعهود، فأخرجوا إلى الشام.

وقيل إن المستنصر، أو المستعلي لما رأى قوة الدولة السلجقية وتمكنها، وأنهم استولوا على ملك بلاد الشام إلى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم، راسل الفرنج يدعوهم إلى الخروج إلى الشام، ليملكوه، ويكونوا بينه وبين المسلمين، والله تعالى أعلم.

فلما عزم الفرنج على قصد الشام صاروا إلى قسطنطينية ليعبروا المجاز إلى بلاد الإسلام ويسيروا في البر فيكون أسهل عليهم ، فمنعهم ملك الروم من ذلك، ولم يمكنهم أن يمتروا ببلاده، وقال: لأمكنكم من العبور إلا أن تحلفوا أنكم تسلمون إلى أنطاكية، وكان قصده أن يثبتم على الخروج إلى بلاد الإسلام ظنا منه أن الترك لا يبقون منهم أحدا لما رأى من صرامتهم وملكهم البلاد.

فأجابوه إلى ذلك وعبروا الخليج في سنة تسعين وأربعمائة. ووصلوا إلى بلاد قلج أرسلان بن سليمان بن قتلмыш، فلقيهم في جموعه ومنعهم، فقاتلوه وهزموه، وذلك في شهر رجب منها، ومروا في بلاده إلى بلاد ابن ليون الأرمني، فسلكوها وخرجوا منها إلى أنطاكية، فحصرها.

قال المؤرخ: فلما سمع صاحبها ياغي سيان بتوجههم إليها خاف من النصارى الذين بها، فأخرج من بها من المسلمين بمفردهم في أول يوم وأمرهم أن يحفروا الخندق، ثم أخرج النصارى من الغد لذلك. فعملوا فيه إلى العصر، فلما أرادوا دخول البلد منعهم، وقال لهم: أنطاكية لكم فهبوا لي حتى أنظر ما يكون بيننا وبين الفرنج، فقالوا: من يحفظ أولادنا ونساءنا؟ فقال: أنا أخلفكم فيهم، فأمسكوا ثم صاروا في عسكر الفرنج.

وحصرت أنطاكية تسعة أشهر، وظهر من حزم ياغي سيان واحتياطه وجودة رأيه ما لم يشاهد مثله، وهلك أكثر الفرنجة موتا وقتلا، وحفظ ياغي سيان أهل نصارى أنطاكية الذين أخرجهم، وكف الأيدي عنهم فلما طال مقام الفرنج عليها راسلوا أحد المستحفظين للأبراج، وهو زراد، ويعرف بروزبة، وبدلوا له مالا وإقطاعا، وكان يتولى حفظ برج يلي الوادي، وهو مبني على شبك في الوادي.

فلما تقرر الأمر بينهم وبينه، جاءوا إلى الشباك ففتحوه ودخلوا منه، وصعد جماعة كبيرة منهم بالحبال، فلما زادت عدتهم على خمسمائة، ضربوا البوق وذلك عند السحر وقد تعب الناس من كثرة السهر والحراسة، فاستيقظ ياغي سيان وسأل عن الحال فقبل له: هذا البوق من القلعة، ولا شك أنها قد أخذت. ولم يكن من القلعة وإنما من ذلك البرج.

فداخله الرعب، ففتح باب البلد وهرب في ثلاثين غلاما، وجاء نائبه ليحفظ البلد، فقبل له: إنه قد هرب، فخرج من الباب الآخر هاربا. وكان ذلك إعانة للفرنج، ولو ثبت ساعة لهلكوا.

ثم إن الفرنج دخلوا البلد من بابه، ونهبوا وقتلوا من فيه من المسلمين.

وأما ياغي سيان، فإنه لما طلع عليه النهار رجع إلى عقلة وكان كالولهان فرأى نفسه وقد قطع عدة فراسخ، فقال لمن معه: أين أنا؟ فقالوا: على أربعة فراسخ من أنطاكية، فندم كيف خلص سالما ولم يقاتل حتى يزيلهم عن البلد أو يقتل.

وجعل يتلهف على ترك أهله وأولاده والمسلمين، ويسترجع، فسقط عن فرسه لشدة ما ناله، وغشي عليه. فأراد أصحابه أن يركبوه فلم يكن فيه مسكة، وكان قد قارب الموت، فتركوه وساروا عنه فاجتاز به إنسان أرمني كان يقطع الحطب وهو بأخر رمق فقتله، وحمل رأسه إلى الفرنج بأنطاكية.

### ذكر مسير المسلمين لحرب الفرنج وما كان من أمرهم

قال: ولما وصل خبر أنطاكية بالأمير قوام الدين كربوقا صاحب الموصل، جمع العساكر وسار بهم لحربهم واجتمع معه الملك دقاق صاحب دمشق وصاحب حمص وصاحب سنجار، فلما بلغ الفرنج اجتماعهم عظمت عليهم المصيبة وداخلهم الخوف، لما هم فيه من الوهن وقلة الأقوات، وسار المسلمون حتى نازلوا أنطاكية، فأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين، فأغضبهم ذلك وأضمرؤا في أنفسهم الغدر به إذا كان قتال، وعزموا على إسلامه عند الصدمة.

قال: وأقام الفرنج بأنطاكية بعد أن ملكوها ثلاثة عشر يوما ليس لهم ما يأكلونه، فتقوت الأقوياء بدوابهم والضعفاء بالميتة وورق الشجر، فلما انتهت حالهم إلى ذلك أرسلوا إلى كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد، فلم يعطهم، وقال: لا تخرجون منه إلا بالسيف.

وكان معهم من الملوك: بغدوين ، وصنجيل وكندفري، والقمص صاحب الرها، وييمند صاحب أنطاكية وهو مقدم العسكر. وكان معهم راهب مطاع فيهم فقال لهم: إن المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الذي بأنطاكية، وهو بناء عظيم، فإن وجدتموها فإنكم تظفرون، وإن لم تجدوها فالهلاك متحقق.

وكان هو قد دفنها قبل ذلك وعفى أثرها. وأمرهم بالصوم ثلاثة أيام والتوبة، ففعلوا ذلك، فلما كان في اليوم الرابع أدخلهم جميعهم وجميع عامتهم والصناع، وحضروا عليها في ذلك المكان فوجدوها كما ذكر، فقال لهم: أبشروا بالظفر، فخرجوا في اليوم الخامس من الباب بين خمسة وستة ونحو ذلك، فقال المسلمون لكربوقا: ينبغي أن نقف على الباب فنقتل كل من يخرج فإن أمرهم الآن سهل، فقال: أمهلوهم حتى يتكاملوا، ولم يمكن من معاجلتهم، فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين، فجاء إليهم بنفسه ومنعهم.

فلما تكامل خروج الفرنج ، ولم يبق منهم أحد بأنطاكية ضربوا مصافا عظيما، فانهزم العسكر الإسلامي لما عاملهم به كربوقا من الاستهانة بهم والإعراض عنهم، فتمت الهزيمة عليهم، ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح، ولا رمى بسهم، وآخر من انهزم سقمان بن أرتق، وجناح الدولة، لأنها كانا في الكمين، وانهزم كربوقا معهم، فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة، فخافوا أن يتبعوهم، وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبة ورغبة في الشهادة، فقتل الفرنج منهم ألفا، وغنموا ما في العسكر من الأقوات، والأموال، والآلات، والدواب، وغير ذلك، فصلحت حالهم وعادت إليهم قوتهم.

## ذكر ملكهم معرفة النعمان

قال المؤرخ : ثم سار الفرنج إلى معرفة النعمان، فنازلوها وحصروها، وقاتلهم أهلها قتالا شديدا، فرأى الفرنج منهم شدة ونكاية عظيمة. فعمل الفرنج عند ذلك برجاً من خشب يوازي سور المدينة، ووقع

القتال عليه، فصر المسلمون على القتال إلى الليل، ثم خاف قوم منهم وفشلوا، وظنوا أنهم إذا تحصنوا ببعض الدور الكبار امتنعوا بها، فنزلوا عن السور وأخلوا مكانهم الذي كانوا يحفظونه، وفعلت طائفة أخرى مثل ذلك ولم تزل كل طائفة منهم تتبع الأخرى حتى خلا السور، فصعد الفرنج إليه على السلالم، فلما علوه تحير المسلمون ودخلوا دورهم، ووضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام، فقتلوا ما يزيد على مائة ألف وسبوا السبي الكثير.

وأقاموا بها أربعين يوماً وساروا إلى عرقة، فحاصروها أربعة أشهر، ونقبوا سورها عدة نقوب ولم يقدروا عليها. وراسلهم ابن منقذ صاحب شيزر، وصالحهم عليها، ثم ساروا إلى حمص وحاصروها، فصالحهم صاحبها جناح الدولة، وخرجوا على طريق النواقر إلى عكا فلم يقدروا عليها، فساروا إلى البيت المقدس.

### ذكر استيلائهم خذلهم الله تعالى على البيت المقدس

كان استيلاء الفرنج خذلهم الله تعالى، على البيت المقدس في يوم الجمعة، ضحى، لسبع بقين من شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وكان إذ ذاك بيد افتخار الدولة نيابة عن المستعلي بالله. فإنه كان بيد تاج الدولة تنش السلجقي صاحب الشام، وأقطعه للأمير سقمان بن أرتق التركماني، فجاءه الأفضل أمير الجيوش واستولى عليه، وبقي بيد نوابه إلى الآن، فقصده الفرنج عند عجزهم عن فتح عكا، وحاصروه نيفا وأربعين يوماً، ونصبوا عليه برجين، أحدهما من ناحية صهيون، فأحرقه المسلمون وقتلوا جميع من فيه من الفرنج.

فلما فرغوا من ذلك أتاهم الصارخ أن المدينة قد امتلكت من الجانب الآخر، وهو الجانب الشمالي، وركب الناس السيف ولبث الفرنج أسبوعاً يقتلون فيهم.

واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود وقاتلوا فيه ثلاثة أيام،

فبذل لهم الفرنج الأمان، فسلموه إليهم، فوفوا لهم، وخرجوا إلى عسقلان وأقاموا بها.

وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد عن سبعين ألفاً، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم، وعبادهم وزهادهم، ممن فارق أهله، ووطنه وجاور بذلك الموضع الشريف . وأخذوا من عند الصخرة نيفا وأربعين قنديلاً من الفضة، زنة كل قنديل ( ثلاثة آلاف وستمائة درهم، وأخذوا تنوراً من فضة وزنه ) (٦) أربعون رطلاً بالرطل الشامي وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلاً من الفضة، ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلاً. وغنموا ما لا يقع عليه الإحصاء وورد إلى بغداد القاضي سعد الهروي في شهر رمضان، ومعه جماعة، يستنفرون الناس، وأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون، وصدع القلوب واستغاثوا بالجامع يوم الجمعة، وبكوا، وذكروا ما نزل بالمسلمين من البلاء، وما حل بهم من المصيبة. فأمر الخليفة أن يسير القاضي أبو محمد الدامغاني، وأبو بكر الشاشي، وغيرهما، إلى السلطان بسبب ذلك، فاتفق ما ذكرناه من الاختلاف الذي وقع بين الملوك السلجقية، فتمكن الفرنج من البلاد.

قال: ولما اتصل خبر هذه الحادثة العظيمة بالأفضل أمير الجيوش جمع العساكر وخرج إليهم، فقاتلهم في شهر رمضان من السنة. ثم كبسه الفرنج هو ومن معه، وهم على غير تعبئة، فهزموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة. وحاصر الفرنج عسقلان، فصالحهم أهلها على عشرة آلاف دينار، وقيل عشرين ألف دينار، فعادوا إلى القدس.

قال: وكان الذي ملك البيت المقدس من الفرنج كندفري

### ذكر ظفر المسلمين بالفرنج

قال المؤرخ : وفي ذي القعدة سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة لقي كمشكين بن الدانשמند طايلو، وهو صاحب ملطية وسيواس، بيمند الفرنجي بالقرب من ملطية، وكان صاحبها قد كاتبه واستقدمه عليه،

فورد عليه في خمسة آلاف، فلقبهم ابن الدانشمند، وقاتلهم، فهزم ييمند وأسر.

ثم وصل من البحر سبعة قمامصة من الفرنج، فأرادوا خلاص ييمند، فأتوا إلى قلعة أنكورية فأخذوها وقتلوا من بها من المسلمين، وساروا إلى قلعة أخرى فحاصروها وفيها إسماعيل بن الدانشمند، فجمع الدانشمند جمعا كثيرا، ولقي الفرنج، وجعل له كميناً، فقاتلهم وخرج عليهم الكمين فقتلهم. وكانوا ثلاثمائة ألف لم يفلت منهم غير ثلاثة آلاف هربوا..

وسار ابن الدانشمند إلى ملطية فملكها وأسر صاحبها.

قال ابن الأثير الجزري: وكانت هذه الوقائع في شهور قرية.

قال: ولم يزل ييمند في أسره إلى سنة خمس وتسعين، فأخذ منه مائة ألف دينار وأطلقه

**ذكر قتل كندفري وملك أخيه بغدوين وما استولى عليه  
الفرنج من البلاد وهي: حيفا، وأرسوف، وقيسارية،  
والرها، وسروج**

وفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة سار كندفري صاحب البيت المقدس إلى عكا، فحاصرها، فأصابه سهم فقتله، وكان قد عمر مدينة يافا وسلمها إلى قمص من الفرنج اسمه طنكري، فلما قتل كندفري سار أخوه بغدوين إلى البيت المقدس في خمسمائة فارس وراجل، فبلغ ذلك الملك شمس الملوك دقاق صاحب دمشق، فنهض إليه في عسكره ومعه الأمير جناح الدولة في جموعه فقاتله، فنصر على الفرنج.

وفي هذه السنة ملك الفرنج مدينة حيفا عنوة وهي على ساحل البحر بالقرب من عكا، وملكوا أرسوف بأمان وأخرجوا أهلها منها، وملكوا قيسارية بالسيف وقتلوا أهلها، وفيها ملك الفرنج مدينة سروج من ديار الجزيرة، وكانوا قبل ذلك قد ملكوا الرها بمكاتبة من أهلها، لأن أكثر

أهلها أرمن، فلما كان الآن جمع الأمير سقمان بن أرتق جمعا عظيما من التركمان وزحف بهم إليهم، فلحقوه وقاتلوه، فهزموه في شهر ربيع الأول. فلما تمت الهزيمة على المسلمين سار الفرنج إلى سروج، فتسلموها، وقتلوا كثيرا من أهلها وسبوا حريمهم، ونهبوا أموالهم، ولم يسلم منهم إلا من انهزم

ذكر أخبار صنجيل الفرنجي وما كان منه في جروبه وحصار طرابلس والطوبان وملك أنطربطوس

وفي سنة خمس وتسعين وأربعمائة لقي صنجيل الملك قلعج أرسلان صاحب قونية، وصنجيل في مائة ألف مقاتل وقلج في عدد يسير، واقتتلوا، فانهزم الفرنج وأسر كثير منهم، وفاز قلعج بالظفر والغنيمة. ومضى صنجيل مهزوما في ثلاثمائة، فوصل إلى الشام، فأرسل فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس إلى الأمير جناح الدولة بحمص وإلى الملك دقاق بدمشق يقول: من الصواب معالجة صنجيل إذ هو في العدد اليسير فخرج إليه جناح الدولة بنفسه وسير دقاق ألفي مقاتل، وأتتهم الأمداد من طرابلس، وصافوا صنجيل فأخرج مائة من عسكره إلى أهل طرابلس ومائة إلى عسكر دمشق، وخمسين إلى عسكر حمص وبقي في خمسين

فأما عسكر حمص فانهزموا عند المشاهدة وتبعهم عسكر دمشق.

وأما عسكر طرابلس فإنهم قتلوا المائة الذين قاتلوهم، فحمل صنجيل في المائتين الباقيتين، فكسروا أهل طرابلس وقتلوا منهم سبعة آلاف رجل ونازل طرابلس وحصرها.

وأتاه أهل الجبل فأعانوه على حصرها، هم وأهل السواد، لأن أكثرهم نصارى، فقاتل من بها أشد قتال، فقتل من الفرنج ثلاثمائة: ثم هادنهم ابن عمار على مال وخيل، فرحل صنجيل عنهم إلى مدينة أنطربطوس، وهي من أعمال طرابلس، فحصرها وفتحها، وقتل من بها من المسلمين.

ورحل إلى حصن الطوبان<sup>(٧)</sup>، ومقدمه ابن العريض، فقَاتلهم فنصر عليهم وأسر فارسا من أكابر فرسانهم، فبذل فيه صنجيل عشرة آلاف دينار، وألف أسير فلم يجبه ابن العريض إلى ذلك..

## ذكر ملك الفرنج جبيل وعكا

وفي سنة سبع وتسعين وأربعمائة وصلت فراكب من بلاد الفرنج إلى مدينة لاذقية، فيها التجار والمقاتلة والحجاج وغيرهم، فاستعان بهم صنجيل الفرنجي على حصار طرابلس، فحاصروها معه وضايقوها، فلم يروا فيها مطمعا، فرحلوا عنها إلى مدينة جبيل فحاصروها وقَاتلوا عليها قتالا شديدا، فلما رأى أهلها عجزهم عن الفرنج طلبوا الأمان على تسليمها، فبذل لهم صنجيل الأمان، وتسلم البلد منهم فلم يف لهم. وأخذ الفرنج أموالهم وعاقبهم عليها بأنواع العذاب. ثم ساروا إلى عكا نجدة لبغدوين، صاحب القدس، على حصارها، فنازلوها وحاصروها في البر والبحر، وعليها زهر الدولة الجيوشي، فقَاتلهم أشد قتال. فلما عجز عن حفظ البلد فارقه، وملك الفرنج عكا بالسيف، وفعلوا بأهلها الأفعال الشنيعة. وساروا منها إلى دمشق ثم إلى مصر.

وفي سنة تسع وتسعين وأربعمائة ملك الفرنج حصن أفامية، وسرمين من أعمال حلب.

وفي سنة اثنتين وخمسمائة فتح السرداني عرقة، وذلك أنها كانت بيد غلام فخر الملك ابن عمار، وقد عصى على مولاه، فضاق به القوت وانقطعت عنه الميرة، فكاتب طغديكين صاحب دمشق أن يرسل إليه من يتسلم الحصن لعجزه عن حفظه، فبعث إليه طغديكين صاحبا له اسمه إسرائيل في ثلاثمائة، فتسلم الحصن، فلما نزل غلام ابن عمار رماه إسرائيل بسهم فقتله في الاختلاط، طمعا في المال الذي بعرقه لئلا يطلع طغديكين عليه.

قال وأراد طغديكين أن يشحن الحصن بالعساكر والأقوات، فتوالت الأمطار مدة شهرين، فعجز عن ذلك. فلما انقطع المطر ركب في

أربعة آلاف فارس وجاءوا إلى عرقة، فتوجه إليه السرداني وهو يحاصر طرابلس ومعه ثلاثمائة فارس، فانهزم عسكر طغديكين عندما أشرفت الخيل من غير قتال، فأخذ السرداني أثقالهم وتسلم الحصن بأمان، وقبض على إسرائيل، وقال لا أطلقه إلا بفلان وهو من أكابر الفرنج كان أسيرا ففودي به.

## ذكر ملك الفرنج طرابلس وبيروت

كان صنجيل لما ملك مدينة جبيل، كما ذكرنا، حصر طرابلس، فلما لم يتمكن منها وعجز عن الاستيلاء عليها بنى بالقرب منها حصنا وجعل تحته ريبضا، وأقام يرصدها ينتظر فرصة، فخرج الملك أبو علي بن عمار، صاحب طرابلس، فأحرق ريبضه، فوقف صنجيل على سقوفه المحترقة، ومعه جماعة من القمامصة والفرسان، فانخسف بهم. فمرض صنجيل عشرة أيام، ومات، وحمل إلى القدس فدفن هناك، وذلك في سنة تسع وتسعين وأربعمائة

ودامت الحرب على طرابلس خمس سنين، فسار الملك ابن عمار إلى بغداد يستنجد بالخليفة والسلطان على الفرنج، على ما ذكرناه، وعاد من بغداد في منتصف المحرم سنة اثنتين وخمسمائة وتوجه إلى جبلة فدخلها وأطاعه أهلها

وأما طرابلس فإن ابن عمار لما فارقتها راسل أهلها الأفضل أمير الجيوش يلتمسون منه واليا يكون عندهم ومعه الميرة في البحر، فسير إليهم الأفضل شرف الدولة بن أبي الطيب واليا، ومعه الغلال وغيرها. فلما صار إليها قبض على جماعة من أهل ابن عمار واستولى على ما وجدته من أمواله وذخائره

فلما كان في شعبان سنة ثلاث وخمسمائة وصل اسطول كبير من بلاد الفرنج، مقدمه قمص كبير اسمه ريمند بن صنجيل<sup>(٨)</sup>، ومراكبه مشحونة بالرجال والسلاح والميرة وليس ريمند هذا ابن صنجيل صاحب الحصن المقدم ذكره، فنزل على طرابلس وكان السرداني وهو ابن اخت

صنجيل محاصرا لها قبله، فجرت بينهما فتنة أدت إلى الشر والقتال فوصل تنكري صاحب أنطاكية إليها إعانة للسرداني، ووصل بغدوين صاحب البيت المقدس في عسكره، فأصلح بينهم، فنزل الفرنج بأجمعهم على طرابلس وضايقوها، وذلك في شعبان، وألصقوا أبراجهم بسورها، فلما شاهد الجند وأهل البلد ذلك سقط في أيديهم، وذلت نفوسهم، وزادهم ضعفا، فتأخر الأسطول المصري عنهم بالميرة والنجدة، وداوم الفرنج القتال والزحف إلى أن ملكوا البلد عنوة، وذلك يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، سنة ثلاث وخمسة، ونهبوا ما فيها، وأسروا الرجال، وسبوا النساء والذرية، وغنموا من أهلها من الأموال والأمتعة وكتب العلم الموقوفة ما لا يحد ولا يوصف.

وكانت طرابلس من أعظم البلاد، وأهلها من أكثر الناس أموالا.

وسلم الوالي الذي كان بها وجماعة من جندها كانوا التمسوا الأمان قبل فتحها، فوصلوا إلى دمشق، وعاقب الفرنج أهل طرابلس بأنواع العقوبات، وأخذت دوائهم وذخائرهم.

ووصل الأسطول المصري بالرجال والغلال وغيرها، ما يكفيهم سنة، وكان وصول الأسطول إليها بعد أن ملكت بثمانية أيام، ففرق ما في الأسطول على الجهات المجاورة لها: صور وصيدا وبيروت

### ذكر ملك الفرنج جبلة وبلنياس

قال: ولما فرغ الفرنج من طرابلس سار تنكري صاحب أنطاكية إلى بلنياس، فافتتحها وأمن أهلها، ونزل على مدينة جبلة وبها فخر الملك ابن عمار، وكان القوت قد قل بها، فقاتل من بها إلى أن ملكها في الثاني والعشرين من ذي الحجة بالأمان.

وخرج فخر الملك ابن عمار وقصد شيزر، فأكرمه صاحبها الأمير سلطان بن علي بن منقذ الكناني. ثم سار إلى دمشق فأكرمه طغديكين

صاحبها . وأجزّل له في العطية، وأقطعه أعمال الزبداني، وذلك في المحرم سنة أربع وخمسة

## ذكر ملكهم مدينة صيدا

وفي جمادى الأولى سنة أربع وخمسة ملك الفرنج مدينة صيدا، وكانت من جملة ما هو بيد طغديكين صاحب دمشق. وذلك أنه وصل في البحر ستون مركباً للفرنج مشحونة بالرجال والذخائر مع بعض ملوكهم، ليحج إلى القدس ويغزو المسلمين بزعمه، فاجتمع به بغدوين صاحب القدس وقرر معه الغزو فنزلوا على مدينة صيدا في ثالث شهر ربيع الآخر، وضايقوها في البر والبحر، ومنعوا الأسطول المصري من الوصول إليها، وكان بساحل مدينة صور، فعمل الفرنج برجاً من الخشب وأحكموه، وجعلوا عليه ما يمنع النار والحجارة عنه، وزحفوا به. فلما عاين أهل صيدا ذلك ضعفت نفوسهم وأشفقوا أن يصيبهم مثل ما أصاب أهل بيروت، فأرسلوا قاضيها ومعه جماعة من شيوخها إلى الفرنج وطلبوا الأمان، فأمنوهم على نفوسهم وأموالهم والعسكر الذي عندهم، ومن أراد المقام بها عندهم أمنوه، ومن أراد المسير عنهم لا يمنعه، وحلفوا لهم على ذلك فخرج الوالي وجماعة كثيرة معه تحت الأمان، وكانت مدة الحصار سبعة وأربعين يوماً.

ورحل بغدوين عنها إلى القدس، ثم عاد إليها بعد مدة يسيرة يقرر على المسلمين الذين أقاموا بها عشرين ألف دينار، فاستغرق أموالهم وأفقرهم.

## ذكر استيلائهم على حصن الأثارب وحصن زردنا

وفي سنة أربع وخمسة جمع صاحب أنطاكية الفارس والراجل، وسار إلى حصن الأثارب، وهو على ثلاث فراسخ من حلب، فحصره ومنع الميرة عمن فيه، فضاق الأمر عليهم، فنقب المسلمون من القلعة نقباً وقصدوا أن يخرجوا منه إلى خيمة صاحب أنطاكية فيقتلوه، فلما فعلوا

ذلك استأمن إليه صبي أرمني فعرفه الحال، فاحتاط لنفسه واحترز، وجد في قتالهم حتى ملك الحصن عنوة، وقتل من أهله ألفي رجل وسبى.

ثم سار الى حصن زردنا فحصره وفتحته، وفعل بأهله مثل ذلك. فلما سمع بذلك أهل منبج فارقوها خوفا من الفرنج، وكذلك أهل بالس، فطلب أهل الشام الهدنة، فامتنع الفرنج ثم أجابوا، فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنين وثلاثين ألف دينار، وخيول وثياب، وصالحهم ابن منقذ صاحب شيزر على أربعة آلاف دينار، وصالحهم علي الكردي صاحب حماة على ألفي دينار. وكانت عدة الهدنة إلى إدراك المغل وحصاده. ثم جاءت العساكر من العراق ولم يبلغوا غرضاً.

### ذكر حصر مدينة صور وفتحها

كان استيلاء الفرنج، خذلهم الله تعالى، على مدينة صور في الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة خمس وخمسمائة، وذلك أن الفرنج في هذه السنة اجتمعوا مع بغدوين صاحب القدس على حصارها، وكانت إذ ذاك بيد نواب الأمر بأحكام الله وبها من قبله عز الملك الأعز، فحصروها في الخامس والعشرين من جمادى الأولى من السنة، وعملوا ثلاثة أبراج من الخشب علو البرج سبعون ذراعاً في كل برج ألف رجل، ونصبوا عليها المجانيق، وألصقوا أحد الأبراج بسور صور، فجمع عز الملك أهل البلد واستشارهم في حيلة يدفعون بها شر الأبراج، فقام شيخ من أهل طرابلس وضمن إحراقها، وأخذ ألف رجل بال سلاح التام، ومع كل رجل حزمة حطب، فقاتلوا الفرنج حتى وصلوا إلى البرج المتصق بالسور وألقوا الحطب من جهاته، وأشعلوا فيه النار. ثم خاف أن يشتغل الفرنج الذين في الأبراج باطفاء النار، فرماهم بجرار مملوءة بالعذرة كان قد أعدها لهم فلما سقطت عليهم اشتغلوا بما نالهم من الرائحة الكريهة، فتمكنت النار من البرج وأحرق المسلمون البرجين أيضاً.

وكاتب عز الملك طغديكين، صاحب دمشق، فأنجده بالرجال، وأرسل أصحابه للإغارة على بلاد الفرنج، فرجعوا من حصار مدينة صور في شوال من السنة.

ثم عادوا في سنة ست وخمسة إلى الحصار، وضايقوا البلد، فأرسل أهل صور إلى طغديكين صاحب دمشق يطلبون منه أن يرسل إليهم من جهته من يتولى أمرهم ويحميهم، وتكون البلد له. فسير إليهم عسكرياً، وجعل عندهم والياً اسمه مسعود، وكان شهياً شجاعاً عارفاً بالحرب ومكايدها، وأمدّه بالعساكر والميرة، فطابت قلوب أهل البلد. ولم يقطع خطبة الأمر بأحكام الله ولا غير سكتته، وكتب إلى الأفضل أمير الجيوش يعرفه ما عمل ويقول: متى وصل من مصر من يتولاها ويذب عنها سلمتها إليه، وطلب منهم ألا ينقطع الأسطول عنها بالرجال والميرة، فأجابه الأفضل إلى ذلك، وشكره على ما فعل، وجهاز أسطولا إليها، فاستقامت أحوال أهلها.

ولم يزل كذلك إلى سنة ست عشرة وخمسة، بعد قتل الأفضل أمير الجيوش، وذلك أن المأمون ابن البطائحي لما ولي إمرة الجيوش بعد قتل الأفضل سير إلى صور أسطولا على العادة، وأمر المقدم عليه أن يعمل الحيلة على الأمير مسعود، الوالي من قبل طغديكين، ويقبض عليه، ويتسلم البلد منه، وكان سبب ذلك أن أهل صور شكوا منه إلى الأمر بأحكام الله، فلما وصل الأسطول وجاء الأمير مسعود ليسلم على المقدم قبض المقدم عليه واعتقله، وحمله إلى الأمر، فأكرمه وأعادته إلى صاحبه بدمشق. واستولى مقدم الأسطول على مدينة صور، وراسل الأمير طغديكين بالخدمة، واعتذر إليه، فقبل عذره، ووعدته المساعدة.

فلما سمع الفرنج بانصراف مسعود عن صور قوي طمعهم فيها، وشرعوا في الجمع، واتصل خبرهم بواليتها، فعلم أنه لا قوة له ولا طاقة بهم، لقلّة من بها من الجند والميرة، وأرسل إلى الأمر بذلك، فرأى أن يرد ولاية صور إلى طغديكين، فأرسل إليه بذلك، فملكها ورتب بها الجند وغيرهم.

وسار الفرنج إلى صور، ونازلوها في شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة، وضيقوا عليها ولازموا القتال، فقلت الأقوات، وسئم من بها القتال، وضعفت نفوسهم. وسار طغديكين إلى بانياس ليقرب منهم ويذب عن

البلد، وأرسل إلى الأمر يستنجده، فلم ينجده، وأشرف أهلها على الهلاك. فحينئذ راسل طغديكين الفرنج على أن يسلم إليهم البلد، ويمكنوا من بها من الجند والرعية من الخروج بما قدروا عليه من أموالهم وغيرها، فاستقرت القاعدة على ذلك، وفتحت أبواب البلد، وفارقه أهله، وحملوا ما أطاقوا وتفرقوا في البلاد، ولم يتعرض الفرنج إليهم، وملك الفرنج البلد في التاريخ الذي قدمناه، ولم يبق بصور إلا ضعيف عاجز عن الحركة.

وفي سنة ثلاث وعشرين وخمسة مائة ملك الفرنج حصن القدموس من المسلمين، وملكوا بانياس بمراسلة إسماعيل الإسماعيلي، ورغبته في ذلك وانضمامه إلى الفرنج، على ما قدمنا ذكره في أخبار تاج الملوك طغديكين صاحب دمشق.

هذا ما استولى عليه الفرنج من البلاد الإسلامية . فلنرجع إلى أخبار الدولة العبيدية.

### ذكر وفاة المستعلي بالله

كانت وفاته في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقية من صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة

ومولده لعشر بقين من المحرم سنة سبع وستين وأربعمائة، وكان عمره ثمانيا وعشرين سنة وثمانية وعشرين يوما

ومدة ولايته سبع سنين وشهرا واحدا وثمانية وعشرين يوما.

ولم تكن له سيرة تذكر، فإن الأمر كان للأفضل أمير الجيوش، لم يكن للمستعلي معه من الأمر إلا الاسم، والرسم للأفضل

وكان للمستعلي من الأولاد أبو علي المنصور، وجعفر، وعبد الصمد. وزيره: الأفضل أمير الجيوش.

قضاته: أبو الحسن بن الكحال النابلسي، ثم أعاد ابن عبد الحاكم، ثم أبو طاهر محمد بن رجاء، ثم أبو الفرج محمد بن جوهر بن ذكوان النابلسي.

## ذكر بيعة الأمر بأحكام الله

هو أبو علي المنصور بن المستعلي بالله، وهو العاشر من ملوك الدولة العبيدية، والسابع من ملوك الديار المصرية منهم.

قال المؤرخ: لما مات المستعلي بالله أجلس الأفضل أمير الجيوش ولده أبا علي هذا على سرير الخلافة، وذلك في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وباع له الناس ولقبه بالأمر بأحكام الله، وله من العمر خمس سنين وشهر واحد وأيام.

قال: ودبر الأفضل الأمر على ما كان عليه في أيام أبيه المستعلي.

وفي سنة خمسماية بنى الأفضل أمير الجيوش الدار المعروفة بدار الملك على شاطئ النيل بمصر، وكملت عمارتها في سنة إحدى وخمسمائة، وسكنها

ومدحه الشعراء. فممن مدحه أبو الفضل بن أمية المغربي من قصيدة جاء منها:

دار هي الفلك الأعلى، وأنت بها

شمس الضحى، وبنوك الأنجم الزهر

ودار الملك هذه هي دار الوكالة الآن، وكان موضعها أخصاص موقوفة على الأشراف، فأمر أن يؤخذ ما كان لهم من الحكر على الأخصاص من مال الرباع السلطانية

## ذكر انشاء ديوان التحقيق

وفي سنة إحدى وخمسة جدد ديوانا وسماه ديوان التحقيق ،  
واستخدم فيه أبا البركات يوحنا بن أبي الليث النصراني، وبقي فيه إلى أن  
قتل في سنة ثمان وعشرين. واستمر هذا الديوان إلى أن انقرضت الدولة  
العبدية وانقطع، ثم اعاده السلطان الملك الكامل بن الملك العادل في  
سنة أربع وعشرين، واستخدم فيه أبو كوجك اليهودي، ثم أبطر في سنة  
ست وعشرين وستمئة فلم يعد، واستخدم في أيام السلطان الملك المعز  
أيك صفى الدين عبدالله بن علي المغربي في استيفاء مقابلة الدواوين،  
وهو نوع منه .

## ذكر حل الاقطاعات وتحويل السنة

وفي سنة إحدى وخمسة كثرت شكاوى الأجناد وطائف العساكر  
المصرية بسبب إقطاعاتهم، وأنها خربت وقل ارتفاعها، وأنها لا تقوم  
ببعض كلفهم، وأن الاقطاعات التي بيد الأمراء زائدة عن الارتفاع،  
فأحضر الأفضل محمد بن فاتك البطائحي، وهو وزيره واستاذ داره،  
واستشاره فيما يفعل في ذلك، فأشار بحل جميع الإقطاعات التي بيد  
الأمراء وغيرهم، وأن يجمع الأمراء والطوائف للمزايدة فيها، فاتفق الرأي  
على ذلك.

وأحضر الأمراء والأجناد في دار الوزارة، وتحدث معهم في ذلك، فقال  
الأمراء: لنا في إقطاعاتنا أملاك وبساتين ومعاصر وغيرها، فقال الأفضل:  
الأملاك لملاكها على حالها يتصرفون فيها بالبيع والإيجار.

ثم حل الإقطاعات ووقعت الزيادة فيها، وتميز لكل منهم إقطاع،  
وكتبت المناشير بذلك، ثم شكني إليه كثرة عبء البلاد وأن متحصلها

لايفي بالعبرة وحصل لديوان السلطان ضياع مقورة عبرتها خمسون ألف دينار في كل سنة.

ونقلت السنة الشمسية الخراجية إلى الهلالية، وكانت سنة إحدى وخمسمائة الهلالية وسنة سبع وتسعين وأربعمائة الخراجية فنقلت إلى سنة إحدى وخمسمائة

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة أغار بغدوين ملك الفرنج على الفرما وقتل جميع من بها، وأحرق جامعها ومساجدها، وذلك بعد أن حاصرها أياما، والفرما كانت بلدة بين القصير والغرابي من منازل الرمل، وهي الآن خراب. وقصد بغدوين مصر فرحل عن الفرما، ورجع إلى البيت المقدس، وهو مثقل بالمرض، فهلك بموضع يقال له جور قبل وصوله إلى العريش. فشق الفرنج بطنه وألقوا مصارينه هناك، فهي ترجم إلى وقتنا هذا، ودخلوا بجثته، فدفنوها بقمامة بالبيت المقدس

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة رتب ذخيرة الملك جعفر في ولاية القاهرة، ونظر الحسبة وظلم وعسف، وهو الذي بنى المسجد بسوق الخيل المعروف: بالذخيرة، ومسجد «لابالله» (١٠)، وسبب تسميته بذلك أنه كان يقبض الناس من الطريق ويعسفهم، فيقولون له: لا بالله، فيقيدهم ويستعملهم فيه بغير أجر، ولم يعمل فيه صانع إلا وهو مكروه مقيد. فابتلى الله ذخيرة الملك بأمراض شديدة، ولما مات تجنب الناس الصلاة عليه وتشيعه.

### ذكر نهب ثغر عيذاب

وفي سنة اثنتي عشرة وخمسمائة عمر الشريف أبو محمد قاسم بن أبي هاشم، أمير مكة، مراكب حربية وشحنها بالمقاتلة وسيرهم إلى عيذاب،

فنهبوا مراكب التجار وقتلوا جماعة منهم، فحضر من سلم من التجار إلى باب الأفضل، وشكوا ما حل بهم فأمر بعمارة حراريق يجهزها، ومنع الناس أن يحجوا في سنة أربع عشرة، وقطع الميرة عن الحجاز، فغلت الأسعار، وكان الأفضل قد كتب إلى الأشراف بمكة يلومهم على فعل صاحبهم، فكتب الشريف إلى الأفضل يعتذر، والتزم برد المال إلى أربابه، ومن قتل من التجار فماله لورثته، وأعاد الأموال في سنة خمس عشرة

### ذكر مقتل الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش ابن أمير الجيوش بدر الجمالي وشيء من أخباره

كان مقتله في يوم الأحد سلخ شهر رمضان سنة خمس عشرة وخمسة، وقد ركب من دار الملك بمصر فقتل عند كرسي الجسر، قتله الباطنية. قيل بمواطأة من الأمر، لأنه كان قد ضاق منه لتحكمه عليه ومنعه من شهواته، فقصده اغتياله إذا دخل عليه للسلام، فمنعه أبو الميمون عبد المجيد بن أبي القاسم، ابن عمه، وقال: إن هذا الأمر فيه من قبح الأحدثة وسوء الشناعة ما لا تحمد عاقبته، لأن هذا الرجل ما عرف له ولا لأبيه إلا المودة في خدمة هذا البيت والذب عنه، وإن قتلناه لا غنية أن نولي منصبه لغيره، فيكون المتولى بعده على وجل واحتراس، وإنما الرأي أن ندبر عليه فدبر عليه حتى قتل. هذا أحد الأقوال في قتله.

قال: ولما وثب الباطنية عليه ضرب ثماني ضربات، لوقته، وحمل على أيدي مقدمي ركابه، والقائد الميمون محمد وأخوته لا يمكنون أحدا من الدنو منه، وهم يبشرون الناس بسلامته، حتى وضعوه على سريره وغطى، ونفذ المأمون أخاه حيدرة إلى الأمر يقول له: أدركني وتسلم ملكك لثلاث، أغلب عليه أنا وأنت، وأوصاه أن يهنئ من وجده بسلامة الأفضل، ففعل حيدرة ذلك، وهنأ حرم الأفضل وغيرهم. فعزم أولاده على إثارة

فتنة وأنهم يطلبون الأمر لأخيهم تاج المعالي، فأمر الأمر بحمل أولاد الأفضل إلى الاعتقال بخزانة البنود، فحملوا إليها، وبات الأمر بدار الملك.

قال: وكان الأفضل حسن الاعتقاد في مذهب السنة، جميل السيرة، مؤثرا للعدل، صائب الرأي والتدبير، حسن المهمة، كريم النفس، صادق الحديث.

ونال الناس بعد قتل الأفضل من الظلم والجور والعسف ما لا يعبر عنه.

فجاء الناس إلى باب الأمر واستغاثوا، ولعنوا الأفضل وسبوه أقبح سب، فخرج إليهم الخدم وقالوا: مولانا يسلم عليكم ويقول لكم: ما السبب في سب الأفضل وقد كان قد أحسن إليكم وعدل فيكم؟ فقالوا: إنه عدل وتصدق وحسنت آثاره، ففارقنا بلادنا حبا لأيامه، وأقمنا في بلده فحصل بعده هذا الجور، فهو السبب في خروجنا عن أوطاننا واستقرارنا ببلده

قال المؤرخ: لما قتل الأفضل أحضر الأمر وزيره الشيخ أبا الحسن علي الحلبي، والقائد أبا عبد الله محمد وسألهما عن الاموال، فقال القائد أما السر فأعلمه، وأما الظاهر فالوزير يعلمه، وأخبراه بذخائره وأمواله، وأقام الأمر في دور الأفضل، وهي دار الملك بمصر ودار الوزارة بالقاهرة، وغيرهما، أربعين يوما، والكتاب بين يديه يكتبون ما ينقلونه إلى القصور فوجد له من الذخائر النفيسة ما لا يحصى.

وذكر أن الذي وجد له من الأموال ستة آلاف ألف دينار عينا، وفي بيت الخاصة ثلاثة آلاف ألف دينار، وفي البيت البراني ثلاثة آلاف ألف ومائتان وخمسون دينار، وخمسون أردبا دراهم، وثلاثون راحلة من الذهب

العراقي المغزول برسم الرقم، وعشرة بيوت في كل بيت منها عشرة مسامير من الذهب، زنة كل مسامير مائتا مثقال، عليها العمامة المختلفة الألوان مغطاة بالمناديل المزركشة، وتسعمائة ثوب من الديباج الملون، وخمسمائة صندوق من دق دمياط وتينيس برسم كسوة جسده، ولعبة من العنبر على قدر جسده برسم ثيابه توضع ثيابه عليها لتكتسب رائحتها، وترك من الطيب والآلات والنحاس ما لا يحصى.

وترك من الأبقار والجواميس والأغنام ما بلغ ضمان ألبانها ونتاجها أربعين ألف دينار في السنة. وكانت الدواة التي يكتب منها مرصعة بالجواهر، فقوم ما عليها من الجواهر باثني عشر ألف دينار، وخلف من الكتب خمسمائة ألف مجلد.

وحكى القاضي زكي الدين أبو زكريا يحيى بن علي الدمشقي في تاريخه عما خلفه الأفضل فقال: خلف جملة لم يسمع أحدا من الملوك والخلفاء في هذا الزمان جمع مثله ولا ادخر مثل بعضه: وأن الأمر بأحكام الله شرع في حمل ما في دوره إلى القصر، فحمل على عدة كثيرة من الجمال والبغال، ونقل في شهرين وأيام

قال: وحكى الدينبلي التاجر الأمدي أن متولي الخزانة بالقصور ذكر له جملا مما حمل من موجوده في الدار، منها ستة آلاف ألف وأربعمائة دينار، ومن الورق ما قيمته مائتا ألف وعشرون ألف دينار، ومن أطباق الذهب والفضة سبعمائة طبق، ومن الآلات مثل أتواز واصطال وصحاف وشربات وأباريق وزبادي وقدر، وقطع من الفضة والذهب مختلفة الأجناس ما لا يحصى كثرة، وبراني<sup>(١١)</sup> صيني كبار، وعبيات مملوءة جواهر، ومن أصناف الديباج والعتابي وغيره تسعون ألف ثوب، وثلاث خزائن مملوءة صناديق كلها من الدبقي والشرب استعمال تينيس ودمياط، وخزانة الطيب مملوءة أسفاطا، وعود، وبراني مسك ونوافج،

وبراني زجاج مملوءة من الكافور القنصوري، غير مصاعد، ومن العنبر ما لا يحصى كثرة.

وكان له مجلس يجلس فيه للشراب فيه صور ثماني جوارى متقابلات، أربع منهن بيض من كافور وأربع سود من عنبر، قيام في المجلس، عليهن أفخر الثياب وأثمن الحلي وأحسن الجواهر، فكان إذا دخل باب المجلس نكسن رؤوسهن خدمة له، فإذا جلس في صدر المجلس استوين قائمات. ووجد له من المقاطع والستور، والديباج والديبقي الحريري، والذهب، والفرش، والمخاد والمساند على اختلاف أجناسها، أربع حجر كل حجرة مملوءة من ذلك، وعدة صناديق مملوءة حقائق ذهب عراقي برسم الاستعمال. ووجد له ثمانمائة جارية منهن حظايا خمس وستون، لكل جارية حجرة وخزانة مملوءة من الكساوى، والآلات الديباج والذهب والفضة، ومن كل صنف.

قال الخازن: هذا ما حضرني حفظه مما في داره، وأما ما كان في مخازنه وتحت يد عماله وجباته وضممان النواحي فما لا يحصى كثرة، من الأموال والغلال والحبوب والقطن والكتان، والشمع والحديد، والأخشاب وغير ذلك وكل نوع منه ما يجاوز الحد والاحصاء، ولا يمكن تحرير حسابه إلا في المدة الطويلة

وأما العدد والخيول والسلاح والبقر والغنم، فقال الخازن لم تتحرر لكثرتها، وقال حمل من داره أربعة آلاف بساط، وستون حمل طنafs، وخمسمائة قطعة بلور كبار وصغار، وخمسمائة قطعة محكم، وألف عدل من متاع اليمن والاسكندرية والغرب، وسبعة آلاف مركب من أصنافها.

وأما ما عمره من المساجد فمنها: جامع الفيلة، وقيل إنه لم يكمله.

وحكى الشريف محمد بن أسعد الجواني في كتابه المترجم بالنقط في ذكر الخطط أن جامع الفيلة بناه الأفضل في سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، وأن الأفضل مات ولم يكمله فكملة المأمون في وزارته، وولى خطا بته الشريف أمين الدولة أبا جعفر، محمد بن محمد بن هبة الله الحسيني الطرابلسي النسابة وأمر أن يحضر جميع وجوه الدولة والرؤساء في أول جمعة، فحضروا. فلما رقا الشريف المنبر قال: «الحمد لله»، وارتج عليه ودهش، فلم يزل يكررها إلى إلى أن أضجر الناس، وقد هم ، ومضى إلى داره، فاعتل ومات في سنة سبع عشرة وخمسمائة، ومنها المسجد الذي على جبل المقطم، وبني في جامع عمرو بن العاص المئذنة الكبيرة والمئذنة السعيدية والمئذنة المستجدة وجامع الجيزة، وغير ذلك. وهو الذي أنشأ التاج والخمسة وجوه.

قال ناظم سيرة المأمون: وعمل الأفضل خيمة سماها خيمة الفرح، ثم سميت بالقاتول لأنها كانت إذا نصبت يموت تحتها من الفراشين رجل أو رجلان اشتملت على ألف ذراع (وأربعمائة ألف ذراع) وكان ارتفاعها خمسين ذراعا بذرّاع العمل، أنفق عليها عشرة آلاف دينار

ومدحه جماعة من الشعراء وذكروا هذه الخيمة، منهم أبو جعفر محمد ابن هبة الله الطرابلسي بقصيدته التي يقول فيها:  
ضربت خيمة عـز في مقرعلا  
أوفت على عذبات الطود ذي القنن  
جاءت مدى الطرف، حتى خلنت ذروتها  
تأوي من الفلك الأعلى إلى سكن  
أقطارها ملئت من منظر عجب  
يهدي إليك ذكاء الصانع الفطن  
فمن رياض سقاها القطر صيبه  
فما بها ظمأ يوم إلى المزن

وجامح في عنان لا يجاذبه  
وطائر غير صدادح على فنن  
وأرقم لا يمج السم ريقته  
وضيغم ليس بالعادي ولا الوهن  
ومائلين صفوفها في جوانبها  
لو يستطيعون خراج جمع للذقن  
زينت بأروع لا تخصى فضائله  
ماض من المجد والعلياء في سنن  
وأطلع الدست فيها شمس مملكة  
يرى التأمّل فضل العين والأذن  
وعد على السعد أن النصر يضر بها  
بالصين، بعد فتوح الهند واليمن

وقال أبو علي حسن بن زيد الأنصاري، الكاتب بديوان المكاتبات،  
يصفها ويمدح الأفضل:  
مهلاً فقد قصرت عن شأوك الأمم  
وأبدت العجز منها هذه الهمم  
أخيمة ما نصبت اليوم، أم فلنك  
ويقظة ما نراه منك أم حلم؟  
ما كان يخطر في الأفكار قبلك أن  
تسمو على أفق النهى الخيم  
حتى أتيت بها شماء هقّة  
في مارن الدهر من تيه بها شمم  
إن الدليل على تكوينها فلنكا  
أن احتوتك، وأنت الناس كلهم

ومنها:

لديك جيش، وجيش في جوانبها  
مصوور وكتلا الجيشين مزدحم

إذا الصبا حركتها ماج موكبها  
فمقدم منهم فيهما ومنها زم  
أخيلها أخيلك السلاقي تغير بها  
فليس تتزع عنها الخزم واللجم

علمت أبطالها أن يقدموا أبدا  
فكلهم لغبار الحرب مقتحم  
أمتهم أن يخافوا سطوة لردى  
فقد تسالمت الأسياف والقمم  
كأنها جنّة، والقاطنون بها  
لا يستطيعون على أعمارهم هم  
علت. فخلنا لها سرا تحذثه  
للفرقدين وفي سمعها صمم  
إن أنبت أرضها زهرا فلا عجب  
وقد همت فوقها من كفك الديم

قال المؤرخ: وكان للأفضل شعر حسن، فمن قوله في غلامه المعالي:  
أقضي بيميس، أم هو قد  
أم شقيق يلوح أم هو خد  
أنام مثل الهلال سقا عليه  
وهو كالبدر حين وافاه سعد

وكانت ولاية الأفضل سبعا وعشرين سنة وخمسة أشهر.

## ذكر تفويض أمور الدولة وإمارة الجيوش للمأمون البطائحي

قال المؤرخ: وفي الخامس من ذي الحجة من سنة خمس عشرة  
وخمسة فوض الأمر بأحكام الله أمور الدولة وإمارة الجيوش للقائد أبي  
عبد الله محمد بن الأمير ثقة الدولة أبي شجاع فاتك بن الأمير منجد

الدولة أبي الحسن مختار المستنصري المعروف بابن البطائحي، وكان قبل ذلك عند الأفضل أستاذ داره، واستقرت نعوته في سجله المقروء على كافة الأمراء والأجناد «بالأجل المأمون، تاج الخلافة، وجيه الملك، فخر الصنائع، ذخر أمير المؤمنين». ثم نعت بعد ذلك «بالأجل المأمون، تاج الخلافة، عز الإسلام، فخر الأنام، نظام الدين والدعاة». ثم نعت بعد ذلك بنعوت الأفضل وهي: «السيد الأجل المأمون، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الأنام، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين»

قال ناظم سيرة المأمون: ولما كان يوم الثلاثاء الثالث عشر من ذي الحجة من السنة، وهو يوم الهناء بعيد النحر، جلس المأمون في داره وقت أذان الفجر، وجاء الناس لخدمته للهناء على طبقاتهم في أرباب البيوت والأقلام، ثم الشعراء، وركب إلى القصور، فأتى باب الذهب، فوجد المرتبة المختصة بالوزارة قد هيئت له في موضعها الجاري به العادة، وأغلق الباب الذي عندها على الرسم المعتاد لوزير السيف والقلم، وهذا الباب يعرف بباب السرداب، فلما شاهد المرتبة توقف عن الجلوس عليها لأنه لم يذكر له ذلك قبل حضوره، ثم ألبأته الضرورة، لأجل حضور الأمراء، إلى الجلوس عليها فجلس وأولاده الثلاثة عن يمينه، وأخواه عن يساره، والأمراء المطوقون خاصة قائمون بين يديه، ومن عداهم لا يصل إلى هذا الموضع، فما كان بأسرع من أن فتح الباب وخرج عدة من الاستاذين المحنكين، وخرج إليه الأمير الثقة متولي الرسالة وزمام القصور. فوقف أمام المرتبة وقال: أمير المؤمنين يرد على السيد الأجل المأمون السلام، فوقف المأمون عند ذلك وقبل الأرض، وجلس في موضعه، وتأخر الأمير الثقة حتى نزل من على المصطبة التي عليها المرتبة وقبل الأرض ويد المأمون، ودخل من فوره من الباب، وأغلق الباب، على ما كان عليه الأفضل.

قال: وكان الأفضل يقول: ما أزال أعد نفسي سلطانا حتى أجلس

على تلك المرتبة ويغلق الباب في وجهي، والدخان في أنفي، لأن الحمام كانت خلف الباب في السرداب

قال: ثم فتح الباب وعاد الثقة وأشار بالدخول إلى القصر، فدخل المأمون إلى المكان الذي هيء له، ودعي لمجلس الوزارة، وبقي الأمراء بالدهاليز إلى أن جلس الخليفة واستفتح المقرئون. واستدعى المأمون فحضر بين يديه وسلم عليه أولاده وإخوته، ثم دخل الأمراء وسلموا على طبقاتهم، ثم الأشراف وديوان المكاتبات والانشاء، ثم قاضي القضاة، والشهود، والداعي، ثم مقدموا الركاب ومتولي ديوان المملكة.

ثم دخل الأجناد من باب البحر، وهو الباب الذي يقابل المدرسة الكاملية الآن، ثم دخل والي القاهرة ووالي مصر وسلما بياض أهل البلدين، ثم البطرك والنصارى والكتاب منهم، وكذلك رئيس اليهود.

ودخل الشعراء على طبقاتهم، وأنشد كل منهم ما سمحت به قريحته.

وكانت هذه عادة السلام على ملوك هذه الدولة، وإنما أوردنا ذلك ليعلم منه كيف كانت عاداتهم

### وفي سنة سبع عشرة وخمسةائة

ورد إلى الديار المصرية طائفة كثيرة من عرب لواته من جهة المغرب، وانتهوا إلى الاسكندرية وأعمالها، وأفسدوا فسادا متحكما، فندب المأمون إليهم أخاه نظام الملك حيدرة، الملقب بالمؤمن، فقاتلهم وهزمهم، وغنم أموالهم، وتوجه إلى الاسكندرية ودخلها، فصادف مراكب البنادقة قد هجموا على ساحل الثغر وأسروا، فخرج إليهم، وحاربهم وهزمهم، فعادوا.

## ذكر القبض على المأمون

قال: وفي سنة تسع عشرة وخمسمائة في يوم السبت لأربع خلون من شهر رمضان قبض الأمر بأحكام الله على وزيره المأمون أبي عبد الله محمد وعلى أخوته ، وثلاثين نفرا من خواصه وأهله، واعتقله، ولم يزل في اعتقاله إلى سنة اثنتين وعشرين ، فصلبه مع اخوته.

وقيل في سبب ذلك أن المأمون راسل الأمير جعفرا، أخا الأمر، وأغراه بقتل أخيه وأنه يقيمه مكانه في الخلافة، واستقرت القاعدة بينهما على ذلك، واتصل ذلك بالشيخ أبي الحسن علي بن أبي أسامة، متولي ديوان المكاتبات، وكان خصيصا بالأمر قريبا منه، وناله من المأمون أذى كثير، فاعلم الأمر بالحال. وكان المأمون كثير التطلع لأخبار الناس والبحث عن أحوالهم، وكثر الوشاة في أيامه.

قال ابن الأثير الجزري في تاريخه الكامل: كان ابتداء حال المأمون أن والده كان من جواسيس الأفضل بالعراق، فمات ولم يخلف شيئا، فتزوجت أمه وتركته فقيرا فاتصل ببعض البنائين بمصر، ثم صار يحمل الأمتعة بالسوق الكبير، فدخل مع الجمالين الى دار الأفضل مرة بعد أخرى، فرآه الأفضل خفيفا رشيقا، حسن الحركة، حلو الكلام والحجة فسأل عنه، ف قيل هو ابن فلان، فاستخدمه مع الفراشين. ثم تقدم عنده وكبرت منزلته وعلت درجته، الى أن انتهى الى ما ذكرنا.

قال محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب في تاريخ مصر: إن ابن الأثير وهم في وفاة والد المأمون، وأن والده مات في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، والمأمون إذ ذاك مدبر دولة الأفضل، وأكثر الناس ينكرون ما ذكره ابن الأثير.

وقال صاحب كتاب البستان في حوادث الزمان: إن المأمون كان يرش بين القصرين، وجده من غلمان المستنصر بالله. والله اعلم.

## ذكر اخبار أبي نجاح بن متى النصراني الراهب وقته

كان هذا الراهب من أهل أشموم طناح، وكان قد خدم ولي الدولة يحنأ بن أبي الليث، ثم اتصل بالخليفة الأمر بعد القبض على المأمون، وبذل في مصادرة قوم من النصارى مائة ألف دينار، فأطلق يده فيهم، وتسلسل الأمر إلى أن عم البلاء منه جميع رؤساء الديار المصرية وقضاتها وكتابها وغيرهم، ولم يبق أحد إلا ناله منه مكروه من الضرب والنهب وأخذ المال، وارتفع شأنه عند الأمر حتى كان يعمل له ملابس مخصوصة به بدمياط وتيس من الصوف الأبيض المنسوج بالذهب، فكان يلبسها، ويلبس من فوقها الغفافر الديباج، وكان يتطيب في كل يوم بعدة مثاقيل من المسك. وكان يركب الحمير بالسروج المحلاة بالذهب والفضة، ويجلس في قاعة الخطابة بالجامع العتيق بمصر ويستدعي الناس للمصادرة. فاستدعى في بعض الأيام رجلا يعرف بابن العرس وكان من أكابر العدول ذوي الهيئات والديانة، والناس يعظمونه وييجلونوه وأوقع به الإهانة والإخراق، فخرج من عنده ووقف في الجامع يوم الجمعة وقال: يا أهل مصر، انظروا عدل مولانا الأمر في تمكينه هذا النصراني من المسلمين، فارتج الناس لكلامه وكادت تكون فتنة، فدخل جماعة على الأمر وخوفوه العاقبة، وعرفوه ما حل بالمسلمين منه فاستدعاه، وكان في المجلس رجل من الأشراف، فانشد الأمر أبياتا منها:

إن الذي شرفت من أجله

يزعم هذا أنه كاذب

فقال له الأمر: ما تقول يا راهب؟ فسكت. فأمر به فقتل، وكان الذي تولى قتله الأمير مقداد والي مصر، وصلبه على الجسر، ثم أنزل وربط على

خشيلة ورمي في بحر النيل، وخرجت الكتب إلى الأعمال البحرية أنه إذا ألقاه الماء إلى جهة أخرجوه عنها حتى ينتهي إلى البحر المالح.

وإنما قتل هذا الراهب وجدوا له مقطعا فيه ثلاثمائة طراحة سامان محشوة، جددا، لم تستعمل، هذا من هذا النوع، خلا ما وجد من الذهب والفضة والأقمشة والديباج.

### ذكر مقتل الأمر بأحكام الله وشيء من أخباره

كان مقتله في يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة، بجزيرة مصر بالقرب من المقياس، وثب عليه عشرة نفر من النزارية وقتلوه، فحمل في جل إلى الجامع، ونقل في مركب عشاري، وأحدر إلى اللؤلؤة في الخليج، ثم حمل إلى القصر، فتوفى ببقية يومه. وقتل القوم الذين قتلوه وكان مولده في يوم الثلاثاء لليلة خلت من المحرم سنة تسعين وأربعمائة وقتل في يوم الثلاثاء سابع عشر المحرم منه، فكان عمره أربعاً وثلاثين سنة وعشرة أشهر، وولايته تسعا وعشرين سنة وثمانية أشهر ونصف شهر، وكان محكوما عليه إلى أن قتل الأفضل وتولى المأمون فظهر أمره، وصار يتصرف (ويركب) في يوم الجمعة ويوم السبت ويوم الثلاثاء، وإذا لم يركب في يوم منها ركب في غيره. ولم يستوزر بعد المأمون وزيرا للسيف والقلم، بل استبد بأمره وبأشرفها بنفسه.

وكان قبيح السيرة في رعيته، يظلمهم ويأخذ أموالهم ويغتصب أملاكهم، وسفك دمائهم، وارتكب المحذورات، واستحسن القبائح، ويكفي من سوء سيرته تمكينه الراهب من المسلمين، وقد تقدم خبره.

وولد للأمر في هذه السنة ولد سمي أبا القاسم الطيب وجعله ولي عهده، فأخفاه الحافظ.

وزراؤه : الأفضل، ثم المأمون.

قضاته: ابن ذكا النابلسي إلى أن رفع ابراهيم بن حمزة الشاهد الى الأفضل أمير الجيوش أنه أحدث في مجلس الحكم فعزله، وولى أبا الفضل نعمة ابن بشير الجليس النابلسي إلى أن استقال، فولى الرشيد أبا عبد الله محمد ابن قاسم الصقلي إلى أن توفي، فأعاد الجليس ثم صرفه، وولى أبا الفتح مسلم، فبقي إلى أن تولى المأمون فعزله ونفاه لما أخطأ في قراءته، وولى أبا الحجاج يوسف بن أيوب الأندلسي إلى أن توفي في سنة إحدى وعشرين وخمسة، فولى الأمر أبا عبد الله محمد بن هبة الله بن ميسر القيسراني، فاستمر إلى أن قتل الأمر بأحكام الله.

### ذكر بيعة الحافظ لدين الله

هو أبو الميمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر بالله، وهو الحادي عشر من ملوك الدولة العبيدية، والثامن من ملوك الديار المصرية منهم. بويع له بعد مقتل ابن عمه الأمر، في يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسة، بولاية العهد إلى أن يستبرئ نساء الأمر، وهل فيهن من هي مشتملة على حمل أم لا.

### ذكر قيام أحمد بن الأفضل الحافظ وما كان من أمر أحمد إلى أن قتل

قال المؤرخ: لما بويع الحافظ لدين الله ثار الجند الأفضلية وأخرجوا ابن مولاهم، أبا علي أحمد بن الأفضل، الملقب بكتيفات، وولوه إمرة الجيوش، وذلك في يوم الخميس السادس من ذي القعدة منها، فحكم، واعتقل الحافظ صبيحة يوم بيعته، ودعا للإمام المنتظر، وقوي أمر ابن الأفضل.

وفي سنة خمس وعشرين رتب أحمد بن الأفضل في الأحكام أربعة  
قضاة: الشافعية، والمالكية، والإسماعيلية، والإمامية، يحكم كل قاضي  
بمقتضى مذهبه ويورث بمقتضاه، فكان قاضي الشافعية الفقيه  
سلطان<sup>(١٢)</sup> وقاضي المالكية اللبني<sup>(١٣)</sup> وقاضي الاسماعلية أبو الفضل<sup>(١٤)</sup>  
ابن الأزرق، وقاضي الإمامية ابن أبي كامل<sup>(١٥)</sup>

وسار أحمد بن الأفضل سيرة جميلة بالنسبة إلى أيام الأمر، ورد على.

الناس بعض مصادراتهم، وأظهر مذهب الإمامية الاثني عشرية، وأسقط  
من الأذان قولهم «حي على خير العمل»، وأمر بالدعاء لنفسه على المنابر  
بدعاء اخترعه لنفسه وهو «السيد الأجل الأفضل، مالك أصحاب  
الدول، والمحامي عن حوزة الدين، وناشر جناح العدل على المسلمين،  
الأقربين والأبعدين، ناصر إمام الحق في حالتي غيبته وحضوره، والقائم  
بنصرته بإضي سيفه، وصائب رأيه وتدييره، ومرشد دعاة المؤمنين بواضح  
بيانه وإرشاده، مولى النعم، ورافع الجور عن الأمم، مالك فضيلتي  
السيف والقلم، أبو علي أحمد بن السيد الأجل الأفضل شاهنشاه أمير  
الجيوش» واستمر أمره إلى يوم الثلاثاء سادس عشر المحرم سنة ست  
وعشرين وخمسةائة. فاتفق ركوبه في هذا اليوم إلى الميدان بالبستان الكبير  
ظاهر القاهرة، للعب بالأكرة على جاري عادته، فوثب عليه مملوك رومي  
وقيل بل من صبيان الخاص، فطعنه طعنة ألقاه بها عن فرسه، ونزل  
واحتز رأسه، ومضى به إلى القصر، وذلك بموافقة من الأجناد، فكانت  
مدة تغلبه على الأمر سنة واحدة وشهرين وثلاثة عشر يوماً، ودفن بتربة  
أبيه خارج باب النصر.

## ذكر بيعة الحافظ لدين الله الثانية

قال: ولما قتل أحمد بن الأفضل بويح الحافظ بالخلافة بيعة عامة، وظهر الحمل المنتظر بنتا، فانتقلت الخلافة إليه وأمر أن يدعى له على المنابر: اللهم صل على الذي شيدت به الدين بعد أن رام الأعداء دثوره، وأقررت الإسلام بأن جعلت طلوعه على الأمة وظهوره، وجعلته آية لمن يدبر الحقائق بباطن البصيرة، مولانا وسيدنا وإمام عصرنا وزماننا، عبد المجيد أبي الميمون، وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين، صلاة دائمة إلى يوم الدين

قال: ولما تم أمر الحافظ استوزر أبا الفتح يانس، وهو رومي من مماليك الأفضل، ولقبه بأمر الجيوش، فقتل الطائفة المعروفة بصبيان الخاص، ومن جملتهم قاتل أحمد بن الأفضل، وكان عظيم الهيبة، بعيد الغور، فخافه الحافظ وتخيل منه، وتخيل يانس أيضا من الحافظ، فدبر كل واحد منهما على صاحبه، فسبق تدبير الحافظ فيه فسمه في ابريق اسنعمل الماء منه عند الطهارة فعولج وكاد أن يبرأ. فكلم الحافظ بعض الأطباء، فقال له الطبيب: إن رأى مولانا أمير المؤمنين أن يمضي إليه ويزوره ويهنئه بالعافية فإنه لا بد أن ينهض إليك ويمشي، فإذا مشى لا يكاد يعيش أبدا. فمضى إليه الحافظ فقام إليه وتلقاه، فمات في ليلته، وذلك في السادس والعشرين من ذي الحجة فكانت مدة وزارته تسعة أشهر.

## ذكر الخلف بين ابني الحافظ لدين الله

قال المؤرخ: وفي شعبان سنة ثمان وعشرين وخمسة مائة جرى بين أبي تراب حيدرة وحسن، ولدي الحافظ، حرب شديدة، وافترقت العساكر على فرقتين، وهما الريمانية والجيوشية، وكان بينهما وقعة في خامس شهر

رمضان، ووقع الحرب بينهما بين القصرين، وقتل من الطائفتين تقدير عشرة آلاف إنسان. وكان سبب ذلك أن الحافظ جعل ولده حيدرة ولي عهده من بعده، فلم يرض حسن بذلك، فوقع الاختلاف والحرب بينهما. واستظهر حسن على أخيه حيدرة، فهرب حيدرة إلى أبيه، فأرسل الحافظ إلى ابنه حسن ليدخل إليه، فامتنع وضايق القصر، وطالبه بأخيه حيدرة، فتلافاه الحافظ وجعله ولي عهده من بعده. وتمكن حسين من الدولة والتصرف فيها بحسب رأيه، ولم يبق للحافظ معه حكم.

### ذكر مقتل حسن بن الحافظ

كان مقتله في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وذلك أنه لما استقر في ولاية العهد والوزارة والتدبير واستبد بالأمر، قبض على جماعة من الأمراء وقتلهم، بسبب قيامهم مع أحمد بن الأفضل، وأقام غيظهم، فخافه من بقي من الأمراء العتق، وأجمعوا على خلع أبيه من الخلافة وولده حسن من الوزارة، فاجتمعوا بين القصرين، وراسلوا الحافظ، وأعلموه بما أجمعوا عليه فاستعطفهم الحافظ واعتذر إليهم، وهرب حسن إلى أبيه، فقبض عليه وقيده، وذكر ذلك للأمراء، فقالوا: لا بد من قتله، فسقاه أبوه سماً فمات، وجعله على سرير، وأمره الأمراء بمشاهدته، فدخلوا عليه ورأوه فسكتوا. وقيل إن قيام الأمراء كان بتدبير الحافظ

### ذكر وزارة بهرام الأرمني

وفي يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة، وقيل لإحدى عشرة ليلة خلت منه، استوزر الحافظ بهرام الأرمني النصراني، ونعته بسيف الإسلام تاج الملوك، وكان بهرام المذكور قد وصل إلى الديار المصرية واجتمع بالحافظ، فرأى منه عقلاً وافراً وإقداماً في الحرب، وحسن تدبير.

وكان سبب وصوله من بلاده أن القائم بأمر الأرمن مات، وكان بهرام أحق بمكانه من غيره، فعدل الأرمن عنه وولوا غيره، فغضب لذلك وخرج من تل باشر وقدم مصر، فعينه الجافظ للوزارة، واستشار بعض أهله وأكابر دولته فيه، فكلهم كره ذلك وأشار عليه ألا يفعل، وقالوا: إنه نصراني لا يرضاه المسلمون، وإن من شروط الوزارة أن الوزير يرقى المنبر مع الإمام في الأعياد ليزر عليه المزة الحاجزة بينه وبين الناس، وأن القضاة هم نواب الوزراء، من زمن أمير الجيوش بدر الجمالي، ويذكرون في النيابة عنهم في الكتب الحكمية النافذة عنهم إلى الآفاق وكتب الأنكحة. فقال الحافظ: إذا رضينا نحن فمن يخالفنا، وهو وزير السيف؟ وأما صعود المنبر فيستنيب عنه فيه قاضي القضاة، وأما ذكره في الكتب الحكمية فلا حاجة إلى ذلك. واستوزر والناس ينكرون ذلك عليه.

وقال بعض المؤرخين: إن بهرام كان والي الغربية يومئذ، وأنه سار منها مجدا إلى أن وصل إلى القاهرة وحاصرها يوما واحدا ودخلها، فلما ولي الوزارة وثبتت بها قدمه سأل الحافظ أن يسمح له بإحضار إخوته وأهله، فأذن له في ذلك. فأرسل إليهم وأحضرهم من تل باشر، فتواصلوا حتى كمل منهم ومن غيرهم من الأرمن تقدير ثلاثين ألف إنسان، فاستطالوا على المسلمين. وبنيت في أيامه كنائس كثيرة وديرة حتى إن كل رئيس من أهله بنى له كنيسة، وخاف أهل مصر منهم أن يغيروا الملة الإسلامية. وكثرت الشكايات فيه. وكان أخوه المعروف بالباساك، وإليه تنسب المنية<sup>(١٦)</sup> التي بالقرب من إطفيح<sup>(١٧)</sup>، قد ولي الأعمال القوصية فجار فيها جورا عظيما واستباح الأموال، فعظم ذلك على الناس

## ذكر خروج بهرام من الوزارة ووزارة رضوان بن الوخشي

قال: ولما ثقلت وطأة بهرام على الناس اجتمع الأمراء وكتبوا رضوان ابن الوخشي، وذلك في صفر سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، وكان يومئذ

متولي الغربية ولاء بهرام إياها إبعادا له، فلما أتته كتب الأمراء نهض في طلب الوزارة، ورقى المنبر، وخطب خطبة بليغة حرض الناس فيها على الجهاد، فأجابوه، وحشد العربان وقدم الى القاهرة ، وكان الأمراء قد كاتبوه وقالوا: إذا وقع الوجه في الوجه ارفع المصاحف على الرماح فلإنا ننحاز إليك، ففعل ذلك، وخرج بهرام إليه لما قرب من القاهرة، فلما عاين الأمراء والجند المصاحف التحقوا جميعهم برضوان، وبقي بهرام في الأرمن خاصة. فراسل الحافظ وقال: أنا ألقاهم بمن معي؟ فخاف الحافظ عاقبة ذلك، فأمره أن يتوجه الى قوص ويقيم عند أخيه الباساك الى حين يدبر أمرا. فعاد بهرام الى القاهرة وأخذ ما خف حمله، وخرج من باب البرقية في حادي عشر جمادى الأولى، وتوجه الى الأعمال القوصية.

قال: ولما انفصل عن القاهرة أتت العوام منازل الأرمن ، وكانوا قد نزلوا الحسينية وعمروها دورا. ولما اتصل بأهل قوص انهزام بهرام ثاروا بأخيه الباساك وقتلوه ومثلوا به، وربطوا في رجله كلبا ميتا، ورموه على مزبلة. فقدم بهرام بعد ذلك بيومين، ومعه طائفة من أقاربه، فرأى الباساك على هذه الحال، فقتل جماعة من أهل قوص بالسيف ونهبها وسار إلى أسوان. ثم رجع ونزل بالديرية البيض، وهي من أعمال أخميم بالجانب الغربي.

قال: ولما فارق بهرام القاهرة دخلها رضوان ووقف بين القصرين، وأستأذن الحافظ فيما يفعله، فأمره بالنزول بدار الوزارة، فنزلها، وخلع عليه خلع الوزارة، ونعته بالأفضل. وندب رضوان جماعة من العسكر مع أخيه ناصر الدين، فتوجهوا إلى بهرام ، فاستقر الأمر بينهم أن يقيم بالديرية البيض، وعاد الجند الذين مع بهرام إلى مصر.

ودبر رضوان الأمر أحسن تدبير، وصادر جماعة من أصحاب بهرام وشدد عليهم الطلب ، وقتلهم بالسيف.

## وفي سنة اثنتين وثلاثين وخمسةائة

أحضرت من تنيس امرأة بغير يدين، وموضع يديها مثل الحلمتين، فجيء بها إلى مجلس الوزارة بين يدي رضوان، فعرفته أنها تعمل برجليها ما يعمله الناس باليدين من خط ورقم وغير ذلك، فأحضر لها دواة، فتناولت الأقلام برجلها اليسرى وتأمّلتها قلما قلما فلم ترض شيئا منها، فأخذت السكين وبرت لنفسها قلما وشقته وقطته، واستدعت ورقة فأمسكتها برجلها اليمنى، وكتبت باليسرى بأحسن خط ما تكتب النساء بأيديهن مثله، وحدت الله في آخر الرقعة، وناولتها للوزير. فتناولها فوجدها قد سألته الزيادة في راتبها، فزادها، وأعادها إلى بلدها.

وفيها بنى رضوان المدرسة المعروفة به بالاسكندرية واستدعى الفقيه أبى طاهر بن عوف إلى حضرته وأسند إليه تدريسه.

## ذكر خروج رضوان من الوزارة وما كان من أمره إلى أن قتل

وفي شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين وخمسةائة أحضر الحافظ بهرام الأرمني من الصعيد، وأسكنه في القصور وأكرمه، فعظم ذلك على الأفضل رضوان، فشغب الحافظ عليه الجند، فقام بعضهم عليه، وجرت بينهم حرب بالقاهرة. وطلب رضوان أن يسكن مع الحافظ في القصور، فلم يمكنه، فتزايد الحال على الأفضل وضعفت قدرته عن لقاء العساكر، فهرب إلى الشام، وذلك في منتصف شوال منها، وقصد كمشتكين وإلى صرخد، فأقام عنده فأكرمه. ثم عاد إلى مصر في سلخ المحرم سنة أربع وثلاثين وقد جمع جمعا صالحا من الجند، فخرج إليه العسكر وحاربوه عند باب الفتوح، فمضى ونزل عند الرصد، ثم مضى إلى الصعيد، فنذب إليه الحافظ الأمير سيف الدولة أبى الفضل بن مصال بأمان، فسار

إليه وتلطف به، إلى أن أحضره إلى القصر، في رابع شهر ربيع الآخر من السنة، فاعتقله في بعض قاعات القصور. فأقام في الاعتقال إلى سنة اثنتين وأربعين، فخرج من نقب نقبه في القصر، وذلك في ليلة الثلاثاء لسبع بقين من ذي القعدة منها. وركب وحوله جماعة ممن كان يكاتبه، وتوجه إلى الجيزة، ولقي عسكر الحافظ وقاتلهم عند جامع ابن طولون، فهزموهم. ودخل القاهرة، ونزل بالجامع الأحمر، وأغلق الحافظ باب القصر في وجهه، فاستحضر رضوان أرباب الدولة والدواوين، وأمر ديوان الجيش بعرض الجند، فعرضهم، وأخذ أموالا كثيرة خارجة عن الحصر كانت في الدواوين، وأنفق، وأرسل إلى الحافظ في طلب المال، فأرسل إليه عشرين ألف دينار. وأمر الحافظ مقدمي السودان بالهجوم على رضوان وقتله، فهجموا عليه، فهم بالركوب، فأعجلوه عن ذلك، وضربه بعضهم بسيف فقتله. وقتل معه أخوه، وأحضرت رأسهما إلى الحافظ. وسكنت الفتنة، وأرسل الحافظ الرأس لزوجته رضوان فلما وقع في حجرها قالت: هكذا تكون الرجال. فلم يكن في وقت رضوان أشجع منه.

وكان مولده في سنة تسع وأربعمائة. وأول ولاية وليها الأعمال القوصية والأعمال الإخميمية في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة.

### ذكر وفاة بهرام الأرمني

كانت وفاته لست بقين من شهر ربيع الآخر سنة خمس وثلاثين وخمسمائة بالقصور، وكان الحافظ قد أسكنه بدار بها ولم يمكنه من التصرف، وكان يشاوره في تدبير الدولة والأمور ويصدر عن رأيه، فلما هلك حزن عليه حزنا شديدا، وأمر بغلق الدواوين ثلاثة أيام.

وأحضر الحافظ بطرك الملكية بمصر، وأمره بتجهيزه، فجهزه. وأخرج وقت صلاة الظهر في تابوت عليه الديباج، وحوله جماعة من النصارى

يبخرون باللبان والسندروس والعود، وخرج الناس كلهم مشاة ولم يتخلف عن جنازته أحد من الأعيان، ثم خرج الحافظ على بغلة خلف التابوت وعليه عمامة خضراء وثوب أخضر طيلسان، ولم تزل الناس مشاة والقسوس يعلنون بقراءة الإنجيل، والحافظ على حالته إلى دير الخندق بظاهر القاهرة، وقيل بل إلى بستان الزهري في الكنيسة المستجدة ونزل الحافظ عن بغلته، وجلس على شفير القبر، وبكى بكاء كثيرا.

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة طلع النيل حتى بلغ تسعة عشر ذراعا وأربع أصابع، ووصل الماء إلى الباب الجديد أول الشارع الأعظم بالقاهرة، وصار الناس يتوجهون من القاهرة إلى مصر من جهة المقابر، ولما وصل الماء إلى الباب أظهر الحافظ الحزن والإنقطاع، فدخل عليه بعض خواصه وسأله عن السبب، فأخرج له كتابا وقال له: انظر هذا السطر، فقرأه، فإذا فيه. إذا وصل الماء إلى الباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد. وقال: هذا الكتاب الذي نعلم منه أحوالنا وأحوال الدولة وما يأتي بعدها

### ذكر وفاة الحافظ لدين الله وشيء من أخباره

كانت وفاته في ليلة الخميس لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة، ومولده في المحرم سنة أربع وستين وأربعمائة، وقيل في المحرم سنة ثمان وستين. فكانت مدة عمره ستا وسبعين سنة وشهورا، ومدة ولايته منذ بويج البيعة العامة الثانية، بعد قتل أحمد بن الأفضل، ثماني عشرة سنة وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما.

قال المؤرخ: وكان الحافظ موصوفا بالبطش والتيقظ، وكان شديد المفاتشة وهو الذي عمل طبل القولنج الذي كسره الملك الناصر صلاح الدين يوسف، وكان هذا الطبل قد عمل من سبعة معادن والكواكب

السبعة في إشراقها. وكان خاصته أنه كلما ضرب به ضربة خرج الريح من مخرج الضارب.

قال بعض المؤرخين : إن الحافظ خطر بباله أن ينقل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى القاهرة، وكانت المدينة إذ ذاك يخطب بها لبني العباس، لظهور ملوك الدولة السلجقية، فأرسل نحوها من أربعين رجلا من أهل النجدة والقدرة، فتوجهوا إلى المدينة وأقاموا بها مدة، وتحيلوا بأن حفروا سرياً من مكان بعيد، وعملوا حساب الخروج في المكان المقصود. فعصم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم من أن ينقل من المكان الذي اختاره له، فيقال إن السرب انهار عليهم فهلكوا، وقيل بل سعي بهم فأهلكوا.

وكان للحافظ من الأولاد: أبو علي حسن، هلك كما ذكرنا، وعبد الله، هلك في حياته أيضاً، وأبو المنصور إسماعيل، وأبو الأمانة جبريل، ويوسف. ووزراءه: تقدم ذكرهم. ولما قتل رضوان بن الولخي لم يستوزر بعده أحداً، وإنما كانوا كتاباً. فمن أشهر كتابه أبو علي حسن الأنصاري كان (القاضي) الفاضل يقول : لم يسمح الزمان بمثله.

ومن أشهر شعرائه الشريف أبو الحسن الأخفش المغربي ومن جملة شعره في قصيدة:

ذكر الدوح وشاطئه بردي  
وحبابا فيه يحكي بردا  
والصبايمرح في أرجائه  
وتحوك الريح منه زردا  
ينثر الدر عليه فضة  
وتذيب الشمس فيه عسجدا  
ورشالو لم تكن ريقته  
خمرة صافية ماعربدا

قضاته: لما غلب أحمد بن الأفضل على الأمر ، أبقى محمد بن هبة الله ابن ميسر القيسراني على القضاء، ثم صرفه الحافظ واستقضى أبا الفخر صالح بن عبد الله بن أبي رجاء، ثم قبض عليه الوزير يانس الرومي وقتله، فولى سراج الدين أبو الثريا نجم بن جعفر ، مضافا الى الدعوة، إلى أن قتل في ذي القعدة سنة ثمان وعشرين، فأعيد سناء الملك ابن ميسر، فأقام إلى أن قبض عليه في يوم الأحد لسبع خلون من المحرم سنة لإحدى وثلاثين، وسير إلى تنيس فقتل بها، وولي بعده القاضي الأعز أبو المكارم أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي عقيل، إلى أن توفي في شعبان سنة ثلاث وثلاثين. وأقام الناس بغير قاض ثلاثة أشهر، ثم ولي أبو الفضائل هبة الله بن عبد الوارث الأنصاري لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة منها. ثم جرت مفاوضة بينه وبين «النبية» أبي الحسن علي بن «إسماعيل» ، قيل أدت إلى مصافحة خرج في أثناءها القاضي إلى القصر وهو مخرق الأثواب، وقد تحلقت عمامته في حلقه، فعظم على الحافظ خروجه على هذه الهيئة وغرمه مائتي دينار، واستتاب أبا طاهر إسماعيل بن سلامة الأنصاري، فأقام في النيابة إلى مستهل المحرم سنة خمس وثلاثين، فوفر جاري القضاء، وهو أربعون ديناراً في كل شهر، وخدم بجاري التقدمة في الدعوة، وهو ثلاثون ديناراً، في الوظيفتين، فأجيب الى ذلك وأقام إلى أن صرف لسبع خلون من صفر سنة ثلاث وأربعين، وبقي على الدعوة. وولى القضاء أبو الفضائل يونس بن محمد ابن الحسن المقدسي إلى آخر المدة

### ذكر بيعة الظافر بأعداء الله

هو أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله، وهو الثاني عشر من ملوك الدولة العبيدية، والتاسع من ملوك الديار المصرية منهم، بويح له بعد وفاة أبيه لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسةائة، واستوزر الأمير نجم الدين أبا الفتح سليم بن محمد بن

مصال، ونعته بالسيد الأجل المفضل أمير الجيوش، وكان إذ ذاك من أكابر امراء الدولة.

وفي الرابع من شعبان من السنة اجتمع السودان وجماعة من المفسدين بالبهنسائية، فخرج إليهم الوزير فحاربهم وهزمهم .

### ذكر قيام العادل بن السلار ووزارته ومقتل ابن مصال

في هذه السنة ثار الأمير المظفر أبو الحسن علي بن السلار والي الإسكندرية وخرج وحشد وتقدم بمن معه، ودخل القاهرة في يوم الأربعاء سابع شعبان، ووقف على باب القصر، وراسل الظافر والمدبر له من النساء، فراجعت في ذلك وفاء لابن مصال، ثم أجيب إلى ما سأله. وفتح باب القصر، وخلع على المظفر خلع الوزارة ولقب بالعادل، فلما اتصل ذلك بابن مصال جمع عربان البلاد، ووافقه بدر الدين بن رافع مقدم العربان بتلك البلاد، وقصد ابن السلار فندب إليه ربيبه عباس ابن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس بعسكر معه، فعسكر ببركة الحبش، فندب ابن مصال لحربه الأمير الماجد فجد في السير وكبس عسكر عباس، فأثخنهم جراحا وقتلا، فانهزم عباس وأجمع ابن مصال رأيه على قصد بلاد الصعيد، فعاجله ابن السلار وأمد ربيبه بالعساكر وأمره بمعاجلته قبل الجمع، فأدركه بالقرب من دلاص<sup>(١٨)</sup>. والتقوا بينها وبين مهد، وهي قرية هناك، واقتتلوا، فانجلت الحرب عن قتل ابن مصال وبدر بن رافع. وكانت هذه الواقعة في يوم الأحد تاسع عشر شوال. وحمل رأس ابن مصال إلى القاهرة، وطيف به، وخلع على العادل في ذلك اليوم.

وفي السادس والعشرين من شهر رمضان أغلق العادل أبواب القاهرة والقصور، وقبض على صبيان الخاص وقتلهم، وكانوا جمعا كثيرا وهم

أولاد الأجناد والأمراء وعبيد الدولة فكان الرجل إذا توفي وخلف أولادا حملوا إلى حضرة الخلافة وأودعوا في أماكن مفردة لهم، ويؤخذ في تعليمهم الفروسية وغير ذلك، وتسموا صبيان الخاص. وكان سبب ايقاع العادل بهم أنه بلغه أنهم تعاقدوا على قتله، فبادر بهم، وقبض عليهم، وقتل أكثرهم، وجعل من بقي منهم في المراكز بالشغور

وفي يوم الجمعة لأربع خلون من شوال من السنة قتل العادل أبا المكرم الموفق محمد بن معصوم التنيسي ناظر الدواوين، وكان سبب ذلك أن العادل في مبدأ أمره كان من صبيان الحجر، وكان يتكرر إلى الموفق برسائل ويكلمه بكلام غليظ، فكرهه الموفق، ثم كتب بعد ذلك لابن السلار منشور بإقطاع، فدخل به إليه، فتغافل عنه وأهمل أمره، فقال له ابن السلار: ما تسمع؟ فقال: كلامك ما يدخل في إذني أصلا، فأخذ ابن السلار منشورة وخرج من حيث أتى، فلما ولي أمر الدولة دخل عليه الموفق وسلم عليه، فقال له: ما أظن كلامي يدخل في أذنك، فتلجلج بين يديه وقال له: عفو السلطان. فقال: قد استعملت العفو من حين خروجي من عندك، ما أتيتك به، وأشار لبعض خدمه فأحضر مسمارا من حديد عظيم وضرب المسمار في أذنه حتى نفذ من الأخرى، وحمل إلى باب زويلة الأوسط ودق المسمار في خشبة، وعلق عليها وقد مات

### ذكر ما فعله الفرنج بالفرما وما جهزه العادل من الأسطول إلى بلادهم

وفي شهر رجب سنة خمس وأربعين وخمسمائة أغار الفرنج على الفرما فنهبوا وأحرقوها، وعادوا إلى بلادهم، فجهز العادل المراكب الحربية وشحنها بالرجال وسفرها في شهر ربيع الأول سنة ست وأربعين، فمضت إلى يافا وقاتلوا من بها في المراكب، واستولوا على عدة كثيرة من مراكب الفرنج، وأحرقوا ما عجزوا عن أخذه، وقتلوا خلقا كثيرا، ثم

امتدوا إلى ثغر عكا وفعلوا فيه كفعلهم بيافا. وكذلك فعلوا بصيدا وبيروت وطرابلس، ونكوا في الفرنج نكاية عظيمة. ووجدوا طائفة كثيرة من حجاج الفرنج فقتلوا عن آخرهم ، وكان جملة ما أنفق في هذا الأسطول ثلاثمائة ألف دينار .

وفي سنة ست وأربعين قطعت جميع الكساوي المرتبة للأمرء والدواوين عن أربابها، وتوفرت.

### ذكر مقتل العادل بن السلار وسلطنة ربيبه عباس

كان مقتله في السادس من المحرم سنة ثمان وأربعين وخمسة، وكان سبب ذلك أن العادة كانت جارية بتجريد عسكر من مصر في كل سنة لحفظ عسقلان من الفرنج، وكان الفرنج قد حاصروها في سنة سبع وأربعين، فلما كان في هذه السنة وقعت القرعة في البدل على عباس ربيب العادل، وهو ابن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس، فجرده العادل بالعساكر، وقال له: هذا الثغر قد نازله الفرنج، ولاغنية أن تتوجه بالعساكر إليه لتدفعهم عنه، فخرج عباس من القاهرة ومعه جماعة من أكابر الأمراء، منهم أسامة بن منقذ، وكان خصيصا بعباس، فلما وصلا إلى بلبس تذاكر عباس وأسامة القاهرة وطيب المقام بها وما خرجا إليه، وما يلقيانه من الشدائد ولقاء العدو، فتأوه عباس لذلك ولام عمه كونه جرده ، فقال له أسامة: لو أردت أنت كنت سلطان مصر، قال: وكيف الحيلة في ذلك؟ فقال: هذا ولدك نصر، بينه وبين الظافر مودة عظيمة، فأرسله إليه وخاطبه على لسانه أن تكون أنت السلطان مكان عمك، فهو يختارك ويكره العادل. فإن أجابك لذلك فاقتل عمك.

فجهز عباس ابنه وعرفه ما تقرر مع أسامة، فدخل إلى القاهرة على حين غفلة من العادل، واجتمع بالظافر وأعلمه الحال، فأجاب لما طلب.

ثم مضى نصر إلى عند جدته زوجة العادل، وأعلم العادل أن والده أعاده شفقة عليه من السفر، ومضى العادل إلى مصر وجهاز المراكب الحربية، وأنفق في رجالها ليلحق عباساً، وأقام طول نهاره في العرض والنفقة على رجالها، وعاد إلى داره بالقاهرة وهو على غاية من التعب، فلما نام على فراشه احتز نصر بن عباس رأسه، ومضى به إلى القصر، ودخل إلى الظافر، وجهاز إلى أبيه، فركب لوقته، ودخل إلى القاهرة صبيحة نهار الأحد الثاني عشر من المحرم، فوجد جماعة من الأتراك، كان العادل قد اصطنعهم لنفسه، قد ثاروا لذلك، فلاطفهم وطمئنتهم، فلم يطمئنوا ومضوا إلى دمشق.

وكانت وزارة العادل ثلاث سنين ونصف سنة تقريباً، وكان من الأكراد الزرزارية. ولما قتل طيف برأسه في القاهرة ومصر جميعاً، ونصب الظافر عباساً في السلطنة.

### ذكر مقتل الظافر بأعداء الله وأخويه

كان مقتله في ليلة الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة. وذلك أنه خرج ليلاً متنكباً ومعه خادمان وجاء إلى دار نصر بن عباس، وهي الدار المعروفة قديماً بدار جبر بن القاسم، ثم عرفت بسكن المأمون ابن البطائحي، وهي المدرسة المعروفة بالسيوفية في وقتنا هذا، المقابلة لحافر الدبابلة، بخط سوق السيوفيين بالقاهرة وهي لطائفة الفقهاء الحنفية. فلما جاء الظافر إليه قتله نصر بن عباس، وحفر له تحت لوح رخام ودفنه، وقتل أحد الخادمين وهرب الآخر.

وكان سبب ذلك أن الأمراء استوحشوا من أسامة بن منقذ لما حسن لعباس قتل عمه العادل، وقصدوا قتل أسامة. فلما علم بذلك اجتمع بعباس وقال له: كيف تصبر على ما يقوله الناس في ولدك واتهامهم أن

الخليفة الظافر يفعل به ما يفعله مع النساء؟ فعظم ذلك على عباس، وقيل بل كان الظافر قد أنعم على نصر بن عباس بقلينوب، فجاء نصر الى والده وأعلمه بذلك، فقال له أسامة: ما هي بمهرك غالية، فقال عباس لأسامة: كيف تكون الحيلة على هذا الأمر؟ فقال: إن الخليفة في كل وقت يأتي لولدك في هذه الدار خفية، فإذا أتاه فامر به بقتله، فأوصى عباس ابنه بذلك، فلما جاءه قتله نصر.

قال: ولما كان صبيحة يوم قتله ركب عباس وولده على العادة وأتى الى القصر، فقال لبعض الخدم: أعلم مولانا ليجلس للاجتماع معه. فدخل وأعلم أهل القصر بما التمسه عباس من الاجتماع بالخليفة، فقالوا: قل له إنه خرج البارحة ولم يعد، فجاء الخادم إليه وأعلمه الخبر، فشدد عباس في طلب الظافر، ودخل الى القاعات ومعه أكابر الخدم، وقال: لا بد من مولانا، فقيل له عند ذلك: أنت أعلم بحاله، فأحضر أخويه: يوسف وجبريل، وقال لهما: أنتما قتلتما مولانا. فأنكرا ذلك وحلفا عليه الإيثار المغلظة. وأحضر القاضي وجماعة من الأعيان أهل الفتيا وداعي الدعاة وقال: قد صح عندي أن أخوي الظافر قتلاه، فأفتوه بقتلهما، فقتلا بين يديه وقيل إنه قتل معها أبا البقاء بن حسن بن الحافظ، وصارم الدولة، مصلح، زمام القصر.

قال: وكان الظافر من أحسن خلق الله وجهاء، وكان مولده يوم الأحد، النصف من شهر ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وخمسة، فكانت مدة عمره إحدى وعشرين سنة وتسعة أشهر وخمسة عشر يوما ومدة ولايته أربع سنين وسبعة أشهر وخمسة أيام.

ولده: أبو القاسم عيسى

وزراءه: تقدم ذكرهم

قضاته: أبو الفضائل يونس، إلى أن صرفه العادل بن السلار في سنة سبع وأربعين، وولى أبا المعالي مجلي بن نجا المخزومي، فأقام إلى آخر الدولة.

### ذكر بيعة الفائز بنصر الله

هو أبو القاسم عيسى بن الظافر بأعداء الله، وهو الثالث عشر من ملوك الدولة العبيدية، والعاشر من ملوك الديار المصرية منهم. بويع له بعد مقتل والده في يوم الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وخمسةائة، وعمره خمس سنين، وذلك أنه لما قتل الظافر استدعى عباس ابنه أبا القاسم عيسى هذا وحمله على كتفه ووقف في القاعة، وأمر أن تدخل الأمراء فدخلوا، فقال: هذا ولد مولاكم وقد قتل أبوه وعماه كما ترون، والواجب الطاعة لهذا الطفل. فقالوا بأجمعهم: سمعنا وأطعنا، وصاحوا صيحة عظيمة زل منها عقل الصبي واختل، ثم سيره إلى أمه، ولقب بالفائز فأقام يصرع في كل يوم

وانفرد عباس بالوزارة وبتدبير الأمور، ولم يبق على يده يد، وظن أن الأمر استقام له.

### ذكر خروج عباس من الوزارة وما آل إليه أمره

قال المؤرخ: لما قتل الظافر بأعداء الله أكثر أهل القصر النواح عليه، وشرعوا في أعمال الحيلة على عباس، ووافق ذلك نفور الأمراء منه لإقدامه على القتل، فاختلفت الكلمة عليه، وهاجت العساكر وتفرقت الفرق، ولبسوا السلاح. فخرج إليهم عباس في يوم الاثنين عاشر شهر ربيع الأول من السنة، فقاتلهم وهزمهم، وقتل جماعة منهم.

فأرسلت عمه الفائز أخت الظافر شعور أهل القصر طي الكتب الى

الأمير طلائع بن رزيك، وهو اذ ذاك متولي الأعمال السيوطية، وقيل كان متولى منية بني خصيب<sup>(١٩)</sup> وسألوه الانتصار لمولاه، فجمع العربان والأجناد ومقطعي البلاد، وسار الى القاهرة، فوصل إليها في تاسع عشر شهر ربيع الأول من السنة، وخرج الناس للقاءه.

فاستشار عباس أسامة بن منقذ فأشار عليه باللحاق بالشام، فدخل الى القصر وأخذ في جمع تحفه وحمل أمواله، وسار هو وأسامه بن منقذ الى الشام على طريق أيلة. فأرسلت عمه الفائزة الى الفرنج بعسقلان رسلاً على البريد تعلمهم الحال وتبذل لهم الأموال في الخروج على عباس وأخذ ما معه، فخرجوا إليه وقتلوه، فتخاذل عنه اصحابه، ونهبوا ما معه فأسره الفرنج وحملوه الى عسقلان، ونجا أسامة الى دمشق.

وقيل إن الفرنج قتلوا عباساً وأسروا ابنه نصراً ففداه الصالح بن رزيك، واحضره الى القاهرة وضرب عنقه.

## ذكر وزارة الصالح أبي الغارات طلائع بن رزيك

قال المؤرخ: لما توجه عباس نحو الشام وافق ذلك قدوم طلائع بن رزيك، فخرج الأمراء والعساكر إليه، فمن الأمراء من شهر سلاحه وقتلته، ومنهم من التحق به، ثم انجلى الأمر بعد ساعة عن دخول طلائع إلى القاهرة والعساكر بين يديه. وشق القاهرة وهو لابس السواد، وأعلامه سود كذلك حزناً على الظافر، وشعور نساء القصر التي سيرت إليه على الرماح.

ونزل طلائع دار المأمون التي كان بها نصر بن عباس، وأحضر الخادم الذي كان مع الظافر لما قتل وأعلمهم بمكانه، فأخرج وغسل وكفن، وحمل في تابوت على أعناق الأمراء والأستاذين، وابن رزيك يمشي أمام التابوت، وأتوا به الى القصر فصلى عليه ابنه الفائزة ودفن في تربتهم

بالقصر، وجلس الفائز في بقية النهار، وخلع على ابن رزيك بالموشح والعقد، وعلى ولده واخوته وحاشيته، وقرىء سجله بالوزارة، ونعت بالملك الصالح. وقبض على جماعة من الأمراء وقتلهم، في ثالث عشر شهر ربيع الأول من السنة..

وفي سنة خمسين وخمسة خراج الأمير تميم، متولي أخميم وأسيوط، على الصالح، وجمع جمعاً صالحاً، فأخرج إليه الصالح عسكرياً، فالتقوا واقتتلوا، فقتل تميم في سابع عشر رجب.

وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسة انفسخت الهدنة بين الصالح بن رزيك والفرنج، فجهز الصالح الجيوش والسرايا الى بلاد الفرنج، فوصلت سرية الى عسقلان وغنمت وعادت سالمة، وجهز المراكب في البحر نحو بيروت، فأوقعت بمراكب الفرنج، وجهز سرية إلى جهة الشوبك فعاثوا في تلك النواحي، وعادوا سالمين بالغنائم والأسرى.

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشر ذي الحجة سنة اثنتين وخمسين قبض الصالح بن رزيك على الأمير ناصر الدولة ياقوت وأولاده واعتقلهم، وسبب ذلك أنه بلغه أنه كاتب أخت الظافر وقصد القيام على الصالح، وكان والياً عاملاً على الأعمال القوصية، وهو بالقاهرة. ولم يزل في حبسه إلى أن توفي في شهر رجب سنة ثلاث وخمسين.

وفي سنة أربع وخمسين ثار على الصالح طرخان بن سليط بن ظريف، متولى الإسكندرية، وجمع جموعاً من العربان وغيرها، وتقدم بها لحربه، فندب الصالح إليه الأمير عز الدين حسام بن فضة بعسكر، فالتقوا واقتتلوا، فهزم حسام جيوشه وظفر به، فاعتقله الصالح.

فلما كان في المحرم سنة خمس وخمسين ثار أخوه إسماعيل طلباً لثأره، وتلقب بالملك الهادي، فندب الصالح إليه الجيوش، فلما هجمت عليه

هرب وأتى الجيزة، واستتر عند بعض العربان، فلما كان في يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الآخر هرب طرخان من الاعتقال هو والموكل به، فقبض عليه في السادس من الشهر وصلب على باب زويلة، ورمي بالنشاب، ثم مسك أخوه إسماعيل وصلب إلى جانبه بعد ضرب عنقه.

وفي سنة أربع وخمسين بنى الصالح حصنا من اللبن على مدينة بليس.

### ذكر وفاة الفائز بنصر الله

كانت وفاته في ليلة الجمعة السابع عشر من شهر رجب سنة خمس وخمسين وخمسة، وقيل لليلة بقيت منه، وكان مولده في يوم الجمعة لتسع بقين من المحرم سنة أربع وأربعين، فكان عمره إحدى عشرة سنة وستة أشهر وأياما، ومدة ولايته ست سنين وخمسة أشهر وسبعة عشر يوما.

وزرأؤه: الأفضل عباس بن يحيى بن تميم، ثم الصالح طلائع بن رزيك.

قضاته: أبو المعالي مجلي بن نجا القرشي المخزومي، ثم صرف في أول وزارة الصالح، وأعيد أبو الفضائل يونس ثم صرف بالقاضي المفضل أبي القاسم هبة الله بن كامل.

### ذكر بيعة العاضد لدين الله

هو أبو محمد عبد الله بن يوسف، بن الحافظ عبد المجيد، بن محمد، ابن المستنصر بالله أبي تميم معد، بن الظاهر لإعزاز دين الله أبي هاشم علي، بن الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور بن العزيز بالله نزار، بن المعز

لدين الله أبي تميم معد، بن المنصور بنصر الله أبي طاهر إسماعيل، بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد، بن المهدي عبيد الله، وهو الرابع عشر من ملوك الدولة العبيدية، والحادي عشر من ملوك الديار المصرية منهم، وعليه انقضت دولتهم، ببيع له بعد وفاة الفائز بنصر الله في يوم الجمعة السابع عشر من شهر رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

وكان الملك الصالح طلائع قصد ان يبايع لشخص من أقارب العاضد، فقال له بعض أصحابه لا يكن عباس أحزم منك حيث اختار صغيراً وترك من هو أسن منه، واستبد هو بالأمر، فعدل الصالح إلى العاضد، وبايع له وهو مراهق البلوغ، فكانت الخلافة للعاضد اسماً وللصالح رسماً.

ويوسف أبو العاضد هو أحد الأخوين اللذين قتلها عباس بعد قتل الظافر.

وفي سنة ست وخمسين تزوج العاضد لدين الله بابتة الملك الصالح ابن رزيك، وكان العاضد توقف عن زواجها، فجبهر الصالح على ذلك واعتقله الى ان تزوجها، وقصد بذلك أن يرزق العاضد منها ولداً فتحصل الخلافة والملك لبني رزيك، فجاء بخلاف ما قصد.

### ذكر مقتل الملك الصالح طلائع بن رزيك وقيام ولده الملك العادل رزيك

كان مقتله في السابع عشر من شهر رمضان سنة ست وخمسين وخمسمائة، وذلك انه ركب في هذا اليوم من دار الوزارة الى القصر، وجلس على مرتبته على عادته، فلما انقضى المجلس خرج، فبينما هو في دهاليز القصر وثب عليه جماعة فضربوه بالسكاكين عدة ضربات مهلكة. وكان سبب ذلك انه تحكم بالدولة لخلوها من الأمراء وصغر

سن العاضد، وكان قد فرق الأمراء وقتل بعضهم، فبعثت ست القصور  
عمة العاضد الأموال الى بعض الأمراء وأغرثهم به، فرتبوا ذلك. قال: ولما  
ضرب بالسكاكين ألقى ابن الزبد نفسه عليه وقاتل دونه ودخل بقية  
الأمراء فخلصوه فركب وبه بعض رمق. فلما رأته ست القصور وقد ركب  
أيقنت بالهلاك. قال: ولما استقر في منزله أرسل الى العاضد يعاتبه على ما  
كان منه، فحلف وأنكر أن يكون اطلع على هذا الأمر قبل وقوعه فأرسل  
إليه أن يبعث إليه عمته ست القصور، فتوقف العاضد عن ذلك، فأرسل  
الصالح الى ست القصور وأخرجها، فلما جاءت الى منزله أمر بخنقها،  
فخنقت بين يديه حتى ماتت، ومات الصالح في بقية ليلته.

قال: وكان الصالح شديد التشيع متغالياً في مذهب الإمامية، وكان  
يكره أهل السنة، وقيل إنه كان يسب الصحابة، رضي الله عنهم،  
وغضب على من لا يتنقصهم، وكان فيه بخل وحسد، ومنع في أيامه من  
بيع الغلال حتى غلت الأسعار، وكان كثير التطلع إلى ما في أيدي  
الناس، وصادر جماعة ليس لهم تعلق بالدولة، وأفنى الأمراء قتلاً  
واعتقالاتاً، وهو أول من خوطب بالملك في الديار المصرية.

وقال ابن الحباب في سيرته: إنه من ولد جبلة بن الأيهم الغساني،  
الذي ارتد عن الإسلام في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال المؤرخ: وكان والد الصالح يسمى أسد رزيك، قدم مع أمير  
الجيوش بدر الجمالي.

قال: وكان الصالح مع ذلك حازماً ضابطاً لأمر دولته شاعراً اديباً.

قال القاضي الأرشد عمارة اليمني: دخلت على الصالح قبل وفاته  
بليتين فناولني رقعة وقال: لقد عملت هذين البيتين في هذه الساعة،  
فإذا فيها:

- ١٠٥٠٩ -

نحنن في غفلة ونوم وللمو  
ت عيون يقظانة لاتنام  
قد رحلنا الى الحمام سنيناً  
ليت شعري متى يكون الحمام

فقلت هما صالحان، وقمت، فكان آخر عهدي به.

قال المؤرخ: وكان الصالح يقطع الليل أثلاثاً: فالثلث الأول مع أمراء دولته ووجوهها، والثلث الثاني مع جلسائه وندمائه وشعرائه، والثلث الثالث مع خواص نسائه، فكان يسمى ابو العزمين قالوا: وكذلك كان أمير الجيوش بدر الجمالي.

ومن شعر الصالح قوله:

يامريض القلب بالذنب  
ب، متى بالعفو تبرأ  
كلما جددت يومياً  
توبة ضيعت أخرى  
تشتهي الأجر ولا تفهم  
لعل ما يكسب أجراً  
أترى بعد ذهاب الـ  
عمر تستأنف عمراً

وقوله:

ياما شياً فوق الثرى  
رفقاً، فسوف تصير تحتها  
إن قلت إني اعرف الـ  
مولى القديراً، فما عرفته  
إن كنت تعبد للمخا  
فة والرجاء، فما عبدته

والصالح هو الذي بنى الجامع خارج باب زويلة المعروف به. وكان يقول: ندمت على ثلاثة: احدها اني بنيت الجامع بظاهر القاهرة وجعلته عوناً على باب زويلة فيضرها وقت الحصار، والاخرى توليتي شاور أعمال الصعيد، والله لاكان خراب دولة بني رزيك إلا على يديه، والثالثة أنني أنفقت في العساكر مائتي ألف دينار لأجل فتح بيت المقدس فتأخرت عن ذلك.

قال: ولما توفي دفن بدار الوزارة، ثم نقل إلى تربته التي بقرافة مصر.

قال: ولما حضرته الوفاة أحضر ولده رزيك، وأوصاه بوصايا كثيرة من جملتها أنه لا يعزل شاور، ولا يغير عليه مغيراً.

قال: ورثاه الشعراء بقصائد كثيرة، فيها ما قاله القاضي الأرشد عمارة اليميني:

أفي أهل ذاالنادي عليه أسائله  
فإني لما بي، ذاهب العقل ذاهله  
سمعت حديثاً أحسد الصم عنده  
ويذهل وأعيه، ويخرس قائله

ومنها

وقدر ابني من شاهد الحال أنني  
أرى الدست منصوباً وما فيه كافله  
وأني أرى فوق الوجوه كآبة  
تدل على أن النفوس ثواكله  
دعوني فما هذأوان بكائه  
سيأتيكم طل البكاء ووابله

وهي قصيدة طويلة أتى فيها بكل عجيب

قال: ولما مات الصالح خرجت الخلع من القصر لولده، وتلقب  
بالمك العادل مجد الإسلام

### ذكر ظهور حسين بن نزار وقتله

وفي شهر رمضان سنة سبع وخمسين وخمسة وورد حسين بن نزار، بن  
المستنصر بالله بن الظاهر لإعزاز دين الله من بلاد المغرب، وقد جمع  
جمعا عظيما، وتلقب بالمنتصر بالله، فخرج إليه الأمير عز الدين حسام  
ابن فضة بن رزيك على صورة الإنضمام إليه واللحاق به.

فلما صار عنده في خيمته غدر به وقتله، وحمل رأسه الى العاضد لدين  
الله.

وفيها بنى الأمير أبو الأشبال ضرغام البرج المعروف به بثغر  
الإسكندرية.

### ذكر انقراض دولة بني رزيك

قد ذكرنا أن الملك الصالح بن رزيك، والد العادل، لما حضرته الوفاة  
أوصى ابنه العادل بوصايا كثيرة منها أنه لا يعزل شاور من عمله ولا  
يحركه، وحذره من ذلك فلما كان في سنة سبع وخمسين اجتمع أقارب  
العادل وحسنوا له عزل شاور عن ولاية الصعيد، فذكرهم بوصية أبيه،  
فأصروا على عزله، وكان أشدهم في ذلك الأمير عز الدين حسام بن  
فضة، فألزم العادل إلى أن كتب كتابا يستدعي فيه شاور، ويأمره  
بالحضور إلى القاهرة، فكتب إليه شاور يستعطفه، ويظهر الطاعة  
والإدلال لسابق الخدمة لأبيه، ومناصحته في القيام بأمر الدولة، ثم قال  
فيه: إن كان القصد أن يلي الأعمال أحدكم فليرسل السلطان من  
يتسلمها غير عز الدين حسان، وإن كان غيركم من الأمراء فأنا أحق به

من سواكم، وقد سمعتم وصية أبيكم الصالح في حقي وما كرهه في أمري وإقرار أعمال الصعيد في يدي، وأرسل الكتاب إلى العادل، فوقف عليه، وأوقف عليه أقاربه وأهله، فقالوا: إن أبقيته طمع في البلاد ولا يحمل إليك مالا، فقال العادل لهم: المصلحة تركه، فصمموا على عزله.

فأحضر العادل نصير الدين شيخ الدولة، وهو من أقاربه، وخلع عليه وولاه الأعمال القوصية، وكتب على يده إلى شاور بتسليم الأعمال إليه ووصوله إلى القاهرة، وتوجه نصير الدين، فلما وصل إلى إخميم أقام بها، وأرسل الكتاب إلى شاور طي كتابه، فلما وقف شاور على الكتاب أرسل إلى نصير الدين رسولا من جهته برسالة يقول له: إن بيني وبينك صحبة ولا تغتر بقول حسام، وارجع من حيث أتيت فهو خير لك، فرجع نصير الدين إلى القاهرة ولم يعاوده.

وأظهر شاور العصيان على الدولة، وأحضر جماعة من العربان من بني شيبان وغيرهم، وتوجه من الأعمال القوصية، وجعل طريقه على الواحات، وخرج منها إلى تروجه، وحشد العربان وأنفق فيهم الأموال، فوافقوه وانطاعوا له، فسار بهم نحو القاهرة. فندب العادل لحره سيف الدين حسينا، صهره، ومعه جماعة من الأمراء، فراسلهم شاور واستمالهم، وبذل لهم الأموال الجمة، فمالوا إليه فلما التقوا انحازوا إلى جماعته وفارقوا مقدمهم، فانهزم حسين واستجار بظريف بن مكنون أمير جذام، وحمله في البحر، فمضى إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فمات هناك فندب إليه العادل عز الدين حساما، فانهزم منه أيضا.

فعند ذلك خرج العادل من القاهرة وتوجه إلى إطفيح، واستصحب أهله وذخائره، واستجار بسليمان بن الفيض اللخمي، وكان من أصحاب أبيه الصالح، فأنزله عنده، ومضى من وقته إلى شاور وأخبره بخبر العادل، فندب إليه جماعة فأخذوه أسيراً هو ومن معه، ونهب

أصحاب ابن الفيض ما كان معه، وحمل إلي شاور فوصل إليه في ليلة الجمعة لثلاث بقين من المحرم سنة ثمان وخمسين وخمسة فأمر شاور باعتقاله، وقال لسليمان بن الفيض: لقد خبأك الصالح ذخيرة لولده حين استجار بك فأسلمته لي، وأنا اخبتك ذخيرة لولدي، ثم أمر به فشنق، وسميت فرقة ابن الفيض غمازة من ذلك اليوم، فهي تعرف الآن بهذا الاسم، فكانت أيام العادل سنة واحدة وثلاثة أشهر وأياماً. وجميع دولة بني رزيك تسع سنين تقريباً.

### ذكر وزارة شاور الأولى وخروجه منها

كانت وزارته في يوم الأحد لثمان بقين من المحرم سنة ثمان وخمسين وخمسة، وذلك أنه لما انهزمت جيوش العادل بن رزيك وهرب هو إلى إطفيح خلت القاهرة منهم، فدخلها شاور، وحضر بين يدي الخليفة العاضد لدين الله، فخلع عليه خلع الوزارة، وسلطنه، ولقبه بأمير الجيوش، وأطلق شاور لأهل القصور الإطلاقات الكثيرة، وزادهم على مقرراتهم في أيام بني رزيك، واستدعى أموال بني رزيك وودائعهم، وبسط العدل أياماً، ثم شرع في ظلم الناس، وبسط يده ويد أولاده في الدولة، وقطع أرزاق الأمراء والجند واستخف بهم وبالعاضد، وعتا ولده الكامل وتجره ولبس رداء الكبر، وبذخ في الأموال، وصرفها في غير وجوه مصارفها. وساءت سيرته في الأمراء فأجمعوا على إخراج العادل من الاعتقال ونصبه في الوزارة، فاتصل ذلك بالكامل بن شاور، فأشار على أبيه بقتل العادل، فامتنع عن ذلك وقال: إنه أولاني خيراً فلا أقتله، فقتله الكامل من غير إذن أبيه، فعظم ذلك على شاور وعلى الأمراء، وغضب الأمراء لقتل العادل، وخرجوا على شاور، وافترقوا على فرقتين: فكان الضرغام وإخوته وأهله على فرقة، والظهير عز الدين مرتفع وعين الزمان وابن الزبد فرقة.

وكان الضرغام ومن معه أظهر الفرقتين، فخرج على شاور وحاربه، فجمع شاور أمواله وذخائره وغلماؤه، وخرج ليلاً من القاهرة، فركب الضرغام في إثره فلحقه عند باب النصر، فقاتله طي بن شاور، فقتل طي، وأسر الكامل ومضى شاور إلى الشام، وذلك في صبيحة يوم الجمعة، لثلاث بقين من شهر رمضان من السنة، فكانت وزارته ثمانية أشهر وخمسة أيام. والله أعلم.

### ذكر وزارة الضرغام بن سوار

قال: ولما توجه شاور إلى الشام عاد الضرغام إلى القصر، وأرسل إلى العاضد بما كان من أمر شاور، ومضى إلى داره بقية ليلته، وجاء إلى القصور من بكرة النهار، فاستدعاه العاضد لدين الله، وولاه الوزارة، ولقبه بالملك المنصور، واستخلف له الأمراء.

وأرسل علم الملك ابن النحاس إلى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، صاحب الشام، يقبض على شاور. فأظهر نور الدين الإجابة لذلك، وباطنه بخلاف ذلك.

قال: ولما ولي الضرغام الوزارة خرج عليه الأمير علي بن الخواص، فظفر به الضرغام، فأشهره بالقاهرة، وصلبه، وأحضر جماعة من الأمراء إلى داره لدعوة عملها، فلما حضروا قبض عليهم وقتلهم.

### ذكر قدوم شاور من الشام وعوده إلى الوزارة ثانياً وقتل الضرغام

كان قدومه في جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وخمسة مائة. وذلك أنه لما توجه إلى دمشق اجتمع بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وحسن له أن يجهز معه جيشاً يفتح به مصر، ووصفها له ورغبه فيها،

والتزم أنه يحمل خزائنها إليه يستعين بها على قتال الفرنج، فقال إليه،  
وجهز معه أسد الدين شيركوه بعساكر، فلما قاربوا مصر ندب إليهم  
الضرغام عسكرياً وقدم عليه أخاه ناصر المسلمين، فلقبهم على بليس  
فانهزم العسكر المصري وعاد إلى القاهرة.

وسار شاور والعساكر الشامية، فنزل بظاهر القاهرة في آخر الشهر،  
 واجتمع معه خلق كثير من العربان، فعلم الضرغام أنه لا قبل له بها  
دهمه، فركب إلى القصر، وطاف به، وجعل ينادي العاضد، وهو يخاف أن  
ينزل إليه، فأرسل إليه العاضد يقول: أنج بنفسك، فخرج من القاهرة  
يريد مصر، ودخل شاور وشيركوه إلى القاهرة، وندب جماعة في إثر  
الضرغام فأدركوه عند مشهد السيدة نفيسة، فقتلوه هناك في يوم الجمعة،  
ليلتين بقيتا من جمادى الآخرة، وطيف برأسه القاهرة على رمح، وبقيت  
جثته ملقاة بين الآكام ثلاثة أيام حتى أكلتها الكلاب. ودفن ما بقي منه  
عند بركة الفيل، وعمل عليه قبة، فكانت مدة ملك الضرغام تسعة أشهر.

وكان فارساً بطلاً، كريماً، عاقلاً، أديباً، يحب العلماء ويقربهم، وله  
مجلس يجتمع فيه أهل العلم والأدب دون غيرهم. وكان حسن الخط،  
يقال إنه كان يحاكي ابن البواب في خطه.

قال: ودخل شاور إلى العاضد لدين الله في مستهل شهر رجب،  
فعاتبه على ما كان منه في إحضار العسكر الشامي، وحذره عاقبة ذلك،  
فوعده أنه يصرفهم إلى بلادهم، فقبل ذلك منه، وخلع عليه خلع الوزارة.

### ذكر غدر شاور بشيركوه

قال: ولما انتصب شاور في الوزارة، وتم له ما أراد، أخذ في التدبير  
على العسكر الشامي، وحلف الأمراء، وتخاذل عن شيركوه، وصار يخرج  
إليه بوجه عليه آثار الغضب، ففهم أسد الدين شيركوه عنه، وعلم شاور

أنه لا قبل له بشيركوه، فاستعان بالفرنج واستدعاهم من الساحل لنصرته، ووعدهم بالأموال، واتصل ذلك بأسد الدين فحاصر القاهرة.

واتصل خبر شاور بالملك العادل نور الدين فكتب الى أسد الدين وأعلمه بما بلغه من مباطنة الفرنج، وأمره بالخروج عن الديار المصرية، فأبى ذلك وتوجه الى بلبس، واحتوى على بلاد الخوف، وجعل مدينة بلبس ظهره، فاجتمعت العساكر المصرية ومن أتاهم من الفرنج، ونازلوا أسد الدين، وحصروه ببلبس ثلاثة أشهر، وهو ممتنع بها لم يبرز إليهم، فبينما هم كذلك إذ ورد الخبر على الفرنج ان نور الدين ملك حارم وسار الى بانياس، فراسلوا شيركوه يسألونه الصلح، فأجابهم الى ذلك، وخرج من مدينة بلبس، فلما صار بظاهرها أشار شاور على ملك الفرنج بمهاجمته وقبضه فامتنع مري، ملك الفرنج، وأبى إلا الوفاء يمينه لشيركوه.

وسار أسد الدين الى الشام، وعاد شاور الى القاهرة، ومعه طائفة من الفرنج يتقوى بهم، وكان قد بذل لهم على نصرته اربعمائة ألف دينار، ويهادنهم خمس سنين.

وكان دخول شاور إلى القاهرة لست مضين من ذي الحجة من السنة، واستمر بمصر من غير منازع، إلى سنة اثنتين وستين وخمسة.

### ذكر عود أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية بالعساكر الشامية وانفصاله

قال المؤرخ: لما انفصل أسد الدين شيركوه عن الديار المصرية في سنة تسع وخمسين، بقي عنده منها أمر عظيم، وكان إذا خلا بنور الدين الشهيد يرغبه فيها، فجهزه بالعساكر والحشود، فسار من الشام في شهر

ربيع الأول سنة اثنتين وستين وخمسة، فاتصل ذلك بشاور، فراسل الفرنج وانتصر بهم، فخرج الفرنج ووقفوا على الطريق التي يسلكها شيركوه إلى الديار المصرية، فعدل شيركوه عن تلك الطريق وجعلها عن يمينه، وسار حتى نزل إطفيح، في سادس شهر ربيع الآخر. وعبر النيل إلى الجانب الغربي، ونزل الجيزة. وأقام عليها إلى العشرين من جمادى الأولى. واستولى على الغربية وغيرها. فأرسل شاور إلى الفرنج يستحثهم، فأتوا على الصعب والدلول، وقد طمعوا في ملك الديار المصرية.

فلما تكاملوا بالقاهرة توجه أسد الدين شيركوه نحو الصعيد، وسار شاور والفرنج في آثارهم، فجمع أسد الدين الأمراء واستشارهم للعبور إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام، فوافقوا على ذلك، فنهض شرف الدين بزغش، أحد الأمراء المماليك النورية، وكان شجاعا مقداما، وأنكر ذلك كل الإنكار، وامتنع من الموافقة، وقال: من خاف من الأسر أو القتل فلا يخدم الملوك ويأكل رزقهم، ويكون في بيته عند امرأته. وقال: والله لانزال نقاتل إلى أن نقتل عن آخرنا أو ننتصر. فوافقه أسد الدين، وجمع عسكره ورتبهم، وجعل أثقاله في القلب ليكثر بها السواد ولثلا ينهبها أهل البلاد.

فبينما هم في التعبئة إذا بشاور والفرنج قد أقبلوا، ورتبهم واقتتلوا، فكانت الهزيمة على شاور والفرنج وتوالت عليهم الحملات من العسكر الشامي، فتبادت بهم الهزيمة إلى الجيزة، وشيركوه في آثارهم، وقتل منهم خلق وغرق كثير منهم، وأسر أسد الدين صاحب قيسارية.

ودخل شاور والفرنج إلى القاهرة، وملك أسد الدين البر الغربي بكماه، وقصد الإسكندرية ليحاصرها، فلما قرب منها خرج إليه أهلها وسلموها إليه من غير ممانعة، وكان والي الثغر يوم ذاك نجم الدين بن مصال، فدخل شيركوه البلد، وأقام بها أياما قلائل، واستناب بها صلاح

الدين يوسف ابن أخيه نجم الدين أيوب، وتركه بها ومعه ألف فارس. وتوجه هو إلى الصعيد فاستولى عليه، واستخرج أمواله، وصام شهر رمضان بمدينة قوص.

هذا وشاور يتجهز للخروج ويرتب أحواله وأحوال الفرنج ويرم ما تلف لهم، فلما تكامل ما يحتاج إليه قصد الإسكندرية، فأخرج أهلها الأموال وأنفقوها، واستعدوا للحصار، فكان في جملة ما أخرجوه للحصار أربعة وعشرون ألف قوس زنبورك وما يناسب ذلك من الآلات.

وسار شاور ومري ملك الفرنج، فنازلوا الإسكندرية، فلما رأوا شدة أهلها واجتماعهم على الحصار تقدم شاور إليهم وقال: سلموا إلي صلاح الدين ومن معه أضع عنكم المكوس، وأعطيكم الأمان، فامتنعوا وقالوا: معاذ الله أن نسلم المسلمين إلى الفرنج والإسماعيلية، فعند ذلك وقع الحصار واشتد على أهل الإسكندرية إلى أن قلت الأقوات.

وبلغ ذلك أسد الدين فسار من الصعيد وجد في السير إلى الإسكندرية، وكان شاور قد أفسد التركمان الذين مع أسد الدين فصاروا معه، واجتمع لشيركوه طائفة كبيرة من العربان، فلما علم شاور بقربه خافه وراسله في طلب الصلح، وبذل له خمسين ألف دينار، سوى ما أخذه من خراج البلاد، على أن يفارق الديار المصرية، فأجاب أسد الدين إلى ذلك، وشرط عليهم أن يرجع هو إلى الشام، ويرجع الفرنج إلى بلادهم. فاستقرت هذه القاعدة، وحلف الفرنج عليها.

ففتحت الإسكندرية عند ذلك، وخرج صلاح الدين يوسف إلى مري ملك الفرنج وجلس إلى جانبه، فدخل شاور عليهما، فقال لمري: سلمه إلي وأعطيك في كل سنة خمسين ألف دينار، فقال مري: نحن إذا حلفنا

لانغدر، ووبخه، وكان أسد الدين قد شرط على شاور أن الفرنج يرحلون ولا يلتمسون من البلاد درهماً ولا ضيعة ولا غير ذلك.

قال: وارتحل أسد الدين، ودخل مصر برضاء أهلها، وسار إلى بلبس، وأرسل إلى ابن أخيه يوسف أن يتوجه في المراكب إلى عكا، هو ومن معه من العسكر، وما معه من الأثقال، ففعل ذلك، وركب من عكا إلى دمشق.

هكذا حكى ابن جلب راغب في تاريخه، قال: وارتحل أسد الدين من بلبس في نصف شوال، ودخل شاور الإسكندرية، ثم خرج منها وعاد إلى القاهرة، فدخلها في مستهل ذي القعدة، وتلقاه العاضد لدين الله.

وأما الفرنج، فاستقر بينهم وبين شاور أن يكون لهم شحنة بالقاهرة وتكون أبوابها بيد فرسانهم، ويكون لهم في كل سنة مائة ألف دينار.

وفي سنة ثلاث وستين وخمسة خرج يحيى بن الخياط على شاور وطلب الوزارة، فندب شاور عسكرياً لحربه، فانهزم ومضى إلى بلاد الفرنج.

## ذكر وصول الفرنج إلى القاهرة وحصارها وحريق مصر

قال المؤرخ: وفي سنة أربع وستين وخمسة عا د الفرنج إلى القاهرة، وذلك أنهم لما توجهوا في سنة اثنتين وستين رتبوا في القاهرة جماعة من أبطالهم وشجعانهم وفرسانهم ليحموها من عسكر يأتي إليها من الشام، فلما رأوا خلو مصر من الأجناد راسلوا ملكهم مري واستدعوه، وكان من الشجاعة والمكر على أمر عظيم، فامتنع وقال: الرأي ألا نقصدها فإنها طعمة لنا، وأموالها تحمل إلينا نتقوى بها على قتال نور الدين، وإن قصدناها حمل أصحابها الخوف على تسليمها لنور الدين، وإن أخذها وجعل فيها مثل أسد الدين شيركوه فهو هلاك الفرنج وخروجهم من الشام، فلم يقبلوا رأيه، وقالوا: ما يصل عسكر نور الدين إلينا إلا وقد ملكناها، وغلبوا على رأيه.

فتجهز الفرنج وساروا حتى وصلوا إلى مدينة بلبيس ونازلوها، فوقع الإرجاف بمصر، وشرع شاور في إنشاء حصن على مصر واستعمل فيه الناس، فلم يبق أحد إلا وعمل فيه، وحفر خندقاً، وملك الفرنج بلبيس عنوة، وسبوا وقتلوا خلقاً كثيراً. وكان معهم بعض الأمراء المصريين ممن هرب من شاور، منهم يحيى بن الخياط.

ثم ساروا إلى القاهرة وأحاطوا بها، وذلك في العاشر من صفر، فخاف أهلها إن أهملوا القتال أن يحل بهم ما حل بأهل بلبيس، فجدوا في القتال والاحتراز.

قال: ولما قرب الفرنج من القاهرة أمر شاور بنهب مصر وإحراقها، فأحرقت في تاسع صفر، ونهبت، وأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة، فانتقل بعضهم، وتحصن البعض بالجزيرة، وتوجه آخرون في المراكب إلى ثغري الإسكندرية ودمياط، وطائفة إلى الوجه القبلي، وتفرقوا وذهبت أموالهم، كل ذلك قبل نزول الفرنج على القاهرة بيوم

قال: وبقيت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً، إلى حادي عشر شهر ربيع الآخر.

قال: ولما علم العاضد لدين الله عجز أهل القاهرة عن مقاومة الفرنج أرسل إلى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي يستغيث به، وسير إليه شعور نسائه في طي الكتب.

وقيل إن شاور أرسل إلى نور الدين أيضاً.

وأرسل شاور إلى مري ملك الفرنج يذكره بسابق الصحبة والعهود القديمة، وقرر أن يحمل إليه ألف ألف دينار، فأجاب مري إلى ذلك وقال لأصحابه: نأخذ المال ونتقوى به ونمضي ثم نرجع فلا نبالي بعد ذلك بنور الدين، فاستوثق شاور منه بالأيمان وعجل له مائة ألف دينار، وماطله بالبقية، وشرع يجمع له من أهل القاهرة المال، فلم يحصل له من جهتهم غير خمسة آلاف دينار لضعفهم.

هذا والرسول تتابع إلى الملك العادل ويستغيثون به، وقرر له ثلث الديار المصرية.

قال: ولما وصلت الكتب إليه طلب أسد الدين شيركوه من حمص، فسار منها إلى حلب في ليلة واحدة، فجهزه نور الدين وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والسلاح وغير ذلك، فاختر أسد الدين من العسكر ألفي فارس من الأقوياء، وستة آلاف من بقية العسكر، وأنفق نور الدين لكل فارس عشرين ديناراً، ثم سار شيركوه، فكان خروجه من دمشق في منتصف شهر ربيع الأول، وأردفه نور الدين بجماعة من الأمراء، منهم مملوكه عز الدين جرديك، وشرف الدين بزغش وعين

الدولة الياروقي. وناصح الدين خمارتكين، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي ، وغيرهم، والله أعلم.

## ذكر قدوم أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية ورحيل الفرنج عنها

قال: وقدم أسد الدين شيركوه بالعساكر، فكان وصوله إلى مصر في يوم الثلاثاء ليلية بقيت من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين وخمسة، ولما بلغ الفرنج قربه عادوا عن القاهرة إلى بلادهم، وكان رجوعهم في يوم السبت ثالث شهر ربيع الآخر، ومعهم من الأسرى اثنا عشر ألف نفس، ودخل أسد الدين القاهرة في سابع شهر ربيع الآخر، وخرج إليه العاضد لدين الله وتلقاه، وحضر يوم الجمعة التاسع من الشهر إلى الإيوان وجلس إلى جانب العاضد، وخلع عليه، وفرح الناس بقدومه. وعاد أهل مصر إليها، وشرعوا في إطفاء النيران وإصلاح ما تشعث، وكانت سقوف جامع عمرو بن العاص بمصر قد احترقت فجدده الملك الناصر صلاح الدين يوسف.

قال: وأمر العاضد أسد الدين شيركوه بالنزول على شاطئ النيل بالمقس، ورتب له شاور ولمن معه الإقامات الوافرة، وأظهر له وداً كثيراً، وصار يتردد إليه في كل يوم، فطلب أسد الدين من شاور ما لا ينفقه في عسكره، فمطله فسير إليه شيركوه الفقيه عيسى الهكاري يطالبه بالنفقة ويقول له: إن العسكر قد طال مقامهم وطالبوا بالنفقة وتغيرت قلوبهم عليك، وإني أخشى عليك منهم، فلم يكثر شاور بذلك، وشرع في المماثلة فيما كان قرره لنور الدين.

وعزم شاور على ان يصنع دعوة، ويحضر أسد الدين وجماعة الأمراء الذين معه الى داره، ويقبض عليهم، ويستخدم من معه من الجند فيمتنع

بهم من الفرنج. فنهاه عن ذلك ولده الكامل، وحلف انه إن صمم على هذا الأمر عرف به شيركوه، فقال له أبوه: والله لئن لم تفعل هذا قتلنا عن آخرنا، فقال الكامل لأبيه: صدقت، ولأن نقتل ونحن مسلمون خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فإنه ليس بينك وبين الفرنج إلا أن يسمعوا أن أسد الدين قد قبض عليه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين ما أغاثه، ويملكون البلاد، فترك ما عزم عليه، واتصل ذلك بالعاضد فأعلم شيركوه.

### ذكر مقتل شاور

كان مقتله في يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر من السنة.

وذلك ان الأمراء النورية، لما رأوا مماطلته بالنفقة، وبلغهم أنه قد عمل على القبض عليهم اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك، وغيرهما، على قتله وأعلموا أسد الدين بذلك، فنهاهم عنه، واتفق أن شيركوه، خرج لزيارة قبر الإمام الشافعي هذا اليوم، وحضر شاور له على عادته، فقبل إنه توجه للزيارة، فقال: نتوجه إليه، فتوجه ومعه يوسف وجرديك وهما يسايرانه، فأنزلاه عن فرسه، وكتفاه، فهرب عنه أصحابه، فجدلاه في خيمة، وأحاط به جماعة ولم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين، فحضر من القصر جماعة من قبل العاضد، يستحث على قتله، وحضر أسد الدين إلى المخيم ورسل العاضد تتواتر لأسد الدين يأمره بقتله، فقتل، وأرسل رأسه إلى العاضد على رمح.

ومضى أولاه إلى القصور، واستجاروا بالعاضد، فقتلوا بعد العقوبة الشديدة، في يوم الاثنين لأربع خلون من جمادى الأولى منها، وهم: الكامل، والمعظم، وركن الإسلام، وتأسف شيركوه بعد ذلك على الكامل لأنه بلغه ما جرى بينه وبين أبيه.

قال: ولما قتل شاور استدعى العاضد أسد الدين شيركوه، فدخل إلى القاهرة في الساعة التي قتل فيها شاور، فرأى العوام وقد اجتمعوا، فهاله ذلك، فقال لهم: ان مولانا العاضد لدين الله أمير المؤمنين يأمركم أن تنهبوا دور شاور، فتفرق الناس عنه، ونهبوها. ودخل شيركوه إلى القصر، فتلقاه العاضد وخلع عليه خلع الوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش. ولم تطل مدته في الوزارة حتى توفي إلى رحمة الله تعالى بعد خمسة وستين يوماً، وقام بالأمر بعده الملك الناصر صلاح الدين يوسف، على ما نذكره إن شاء الله في أخبار الدولة الأيوبية.

### ذكر انقراض الدولة العبيدية

#### والخطبة للمستضىء بنور الله العباسي

كان انقراض هذه الدولة عند خلع العاضد لدين الله، وذلك في يوم الجمعة لسبع مضين من المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة.

وكان سبب ذلك أن صلاح الدين يوسف لما ثبتت قدمه في ملك الديار المصرية واستمال الناس بالأموال، قتل مؤتمن الخلافة جوهرًا، زمام القصور، ونصب مكانه قراقوش الأسدي الخصي خادم عمه، ثم كانت وقعة السودان، فأفناهم بالقتل، على ما نذكره إن شاء الله مستوفى في أخباره، ثم أسقط من الأذان قولهم «حي على خير العمل»، وابطل مجلس الدعوة، وضعف أمر العاضد معه إلى الغاية فعند ذلك كتب الملك العادل نور الدين إلى الملك الناصر صلاح الدين يأمره بالقبض على العاضد وأقاربه، والخطبة للخليفة المستضىء بنور الله، وكان المستضىء قد راسله في ذلك. فامتنع صلاح الدين، وكره إزالة هذه الدولة. فكتب إلى الملك العادل يعتذر، وقال: إن فعلنا هذا الأمر لانأمن من قيام أهل مصر علينا ليلهم إلى هذه الدولة، وكان قصد صلاح

الدين ان يتقوى بالعاضد على نور الدين إن هو أراد الدخول إلى الديار المصرية.

فلما ورد جوابه على نور الدين بالاعتذار انزعج لذلك، ورادف رسله إليه يأمره بخلع العاضد والقبض عليه.

فاستدعى الملك الناصر الأمراء واستشارهم في ذلك، فمنهم من حذره، ومنهم من هونه عليه، فأحضر الفقيه اليسع بن يحيى بن اليسع، وعرفه الحال، فلما كان في هذه الجمعة صعد إلى المنبر بجامع مصر قبل طلوع الخطيب، ودعا للمستضى بنور الله، فلم ينكر عليه أحد، فلما كان في الجمعة الثانية أمر الملك الناصر الخطباء بمصر والقاهرة أن يخطبوا للمستضى بنور الله أبي محمد الحسن، بن المستنجد بالله العباسي، فخطبوا له.

ثم توفي العاضد لدين الله إثر هذا الخلع، في يوم عاشوراء من السنة، بعد ثلاثة ايام من خلعه، وكان ضعيفاً لما قطعت خطبته، فقال صلاح الدين: لاتعلموه، فإن عوفي أعلمناه، وإن توفي فلا نفجعه بهذه الحادثة.

وقال بعض المؤرخين: إن صلاح الدين لما قطع خطبته دخل عليه وقبض عليه واعتقله، فلما رأى ذلك كان في ذخائره فص في خاتم، فمصه، فمات لوقته، فكان صلاح الدين يقول: ندمت كوني دخلت على العاضد وفعلت به ما فعلت، وكان أجله قد قرب.

ولما مات جلس الملك الناصر للعزاء به. فكانت مدة ولايته إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وتسعة عشر يوماً، مولده في يوم الثلاثاء لعشر بقين من المحرم سنة ست وأربعين وخمسمائة، فعمره على هذا إحدى وعشرون سنة إلا أحد عشر يوماً.

وكان له من الاولاد ثلاثة عشر، وهم: علي، وموسى، وعبد الكريم، وأبو الحجاج يوسف، وأبو الفتوح، وإبراهيم، وجعفر، ويحيى، وعبد القوي، وعبد الصمد، وأبو البشر، وعيسى، فاعتقلهم الملك الناصر بأجمعهم، واستمروا في الاعتقال إلى سنة اثنتين وستمائة، فكان من امرهم ما نذكره في أخبار الدولة الأيوبية.

ووزر له من ذكرنا أخبارهم، وهم: الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك، ثم ولده العادل رزيك، ثم شاور، ثم الضرغام، ثم عاد شاور، ثم أسد الدين شيركوه، ثم الملك الناصر صلاح الدين يوسف.

قضاته: أبو القاسم هبة الله بن الكامل، وأبو الفتوح عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوي، ثم الأعز أبو محمد الحسن بن علي بن سلامة، ثم أعيد عبد الجبار، ثم أعيد ابن كامل، ثم صرف على أيام الملك الناصر بالقاضي صدر الدين أبي القاسم عبد الملك بن درباس.

وكان العاضد شديد التشيع متغالياً في سب الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين، إذا رأى شيئاً استحل دمه.

## جامع أخبار الدولة العبيدية ومدتها ومن ملك من ملوكها

كانت مدة تغلب ملوك هذه الدولة على البلاد منذ أخرج أبو عبد الله الشيعي عبيد الله، المنعوت بالمهدي، من سجلماسة، ومن سجن اليسع بن مدرار إلى أن مات العاضد هذا مائتي سنة وسبعين سنة وشهوراً، منها ببلاد الغرب، منذ دخل عبيد الله المهدي رقاده إلى أن وصل المعز لدين الله إلى القاهرة أربع وستون سنة وعشرة أشهر وخمسة وعشرون يوماً، وباقي هذه المدة بمصر والشام، إلى أن انقطعت دعوتهم بخروج عسقلان عن يد المسلمين واستيلاء الفرنج عليها، في جمادى

الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، في أيام الظافر بأعداء الله في وزارة عباس بن يحيى بن تميم.

وعدة من ملك منهم أربعة عشر ملكاً تسموا كلهم بالخلافة، وهم: عبيد الله المنعوت بالمهدي، ثم ابنه القائم بأمر الله أبو القاسم محمد، ثم ابنه المنصور بنصر الله أبو الظاهر إسماعيل، ثم ابنه المعز لدين الله أبو تميم معد، وهو أول من ملك الديار المصرية والبلاد الشامية منهم، وإليه تنسب القاهرة المعزية، ثم ابنه العزيز بالله أبو المنصور نزار، ثم ابنه الحاكم بأمر الله أبو علي المنصور، ثم ابنه الظاهر لإعزاز دين الله أبو هاشم، وقيل أبو الحسن، علي، ثم ابنه المستنصر بالله أبو تميم معد، ثم ابنه المستعلي بالله أبو القاسم أحمد، ثم ابنه الأمر بأحكام الله أبو علي المنصور، ثم ابن عمه الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد بن محمد ابن المستنصر بالله، ثم ابنه الظافر بأعداء الله أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ، ثم ابنه الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن الظافر، ثم ابن عمه العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله عبد المجيد بن محمد بن المستنصر، وعليه انقرضت دولتهم، وانتهت أيامهم، وباد ملكهم، فلم يعد إلى وقتنا هذا.

قال المؤرخ: ولما خلع العاضد ومات واعتقل الملك الناصر صلاح الدين يوسف أولاده بالقصور مر القاضي الأرشد عمارة اليميني الشاعر بالقصور، وهي مغلقة الأبواب، مهجورة الجناح، خاوية على عروشها، خالية من أنيسها، فأنشأ قصيدته المشهورة التي رثى بها القصور وأهلها، وهي من عيون المراثي وأولها:

رميت ياد هركف المجد بالشلل

وجيده بعد حسن الحلى بالعطل

سعيت في منهج الرأي العثور، فإن

قدرت من عثرات الدهر فاستقل



- ١٠٥٢٩ -

أبكى على مآثرات من مكارمكم  
حال الزمان عليها، وهي لم تحل

وهي قصيدة مشهورة مطولة.

ولما انقرضت هذه الدولة قامت الدولة الأيوبية على ما نذكره إن شاء  
الله تعالى في أخبار ملوكهم والله أعلم.